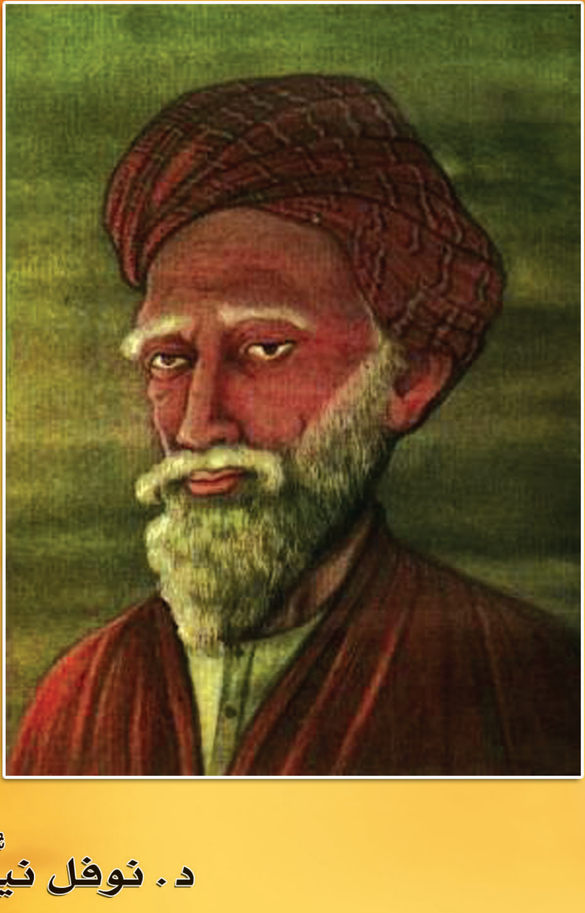
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٣»

المسعودي



د. نوفل نيُّوف

المســعودي

تصميم الغلاف

رفـاه الحـو

د. نوفـل نيّـوف

المســـعودي

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

المسعودي / نوفل نيوف . - دمشق: الهيئة العامة الســورية للكتاب، ٢٠١٢م . - ١٥٦ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٣)

١ - ٩٢٩,١ ط : المسعودي ، علي بن الحسين ن
٢ - العنوان ٣ - نيوف ٤ - السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١٣»

m

ليس كاتبُ هذه السطور مؤرِّخاً، ولا ينوي وضْع كتاب أكاديمي عن رحّالة، جغرافيٍّ ومؤرِّخٍ فذّ كالمسعوديّ. فهذه مهمّة لا نضعها نُصْبَ أعيننا، ولا نسعى إليها. وذلك أقلُّه لسببين رئيسين:

١ - أن للتاريخ رجالَه. والكتبُ التي تندرج في هذا الباب متوفّرةٌ وكثيرة، بصرف النظر عن تفاوت قيمتها وعلميتها.

٢ - ليس مَن نتوجَّه إليهم من فتياننا وفتياتنا بهذا الكتاب، وبهذه السلسلة عموماً، في حاجة الآن، وهم في هذا العمر، إلى دراسة أكاديمية متخصِّصة عن عالمٍ أو مؤرِّخٍ أو أديبٍ...

إنهم في حاجة إلى رؤية صورة ذلك العالم أو المؤرِّخ والأديب... وهو يعمل، ويتحرَّك، ويحلم، ويواجه في سياقِ ما كان سائداً في عصره من ثقافة، وسياسة، وظروف حياة، وتحدّيات، وطموحات، وأخطار... وعلى ضوء ذلك، هم في حاجة، إذاً، إلى الانتقال من السطحيّ، الشفهيّ، المتداوَل شعبيّاً، الشائع، المسموع، المنقول، المحكيّ، المدرسيّ بالمعنى السيِّئ لهذه الكلمة... إلى الملموس: إلى الأصول، إلى النصوص التي وصلت إلينا في الكتب والمخطوطات. الانتقال إلى الاحتكاك المباشر مع المتن والتراث: إلى الوثيقة الناطقة، والشهادة المكتوبة، إلى لغة كاتبها وأسلوبه، إلى التعامل

معه كائناً حيّاً يكشف لنا عن عقله، ومنطقه، وخبرته، ومشاهداته، واستنتاجاته... يخاطبنا، يدفعنا بهدوءٍ واحترامٍ إلى التأمّل، والتفكير، والحوار معه وجهاً لوجه، دون واعظ أو وسيط.

واهتداء بهذا المنطلَق أو الاعتقاد انصبَّ اهتمامُنا، في ما اخترناه من مشاهدات الرحّالة المسعوديّ وأخباره، على ما نراه مفيداً، طريفاً، مشوّقاً، نابضاً بالمعلومة والعبرة في أهمّ ما وصل إلينا من كتبه ("مروج الذهب" أساساً). ولم نلتفت هنا إلى ما يورده المسعودي من أخبارٍ تظلُّ، على أهميّتها، معروفةً يتَكرَّر ذكرُها فيما لا حصر له من كتبٍ ومراجعَ قديمةٍ وحديثةٍ عن نشأة الكون والخليقة، وعن التاريخ الإسلامي (الراشدي والأموي والعبّاسي) الذي تملأ أخباره ثقافتنا البيتية والمدرسية والاجتماعية...

إن الهدف، كما أسلفنا، ليس تقديمَ بحثٍ أكاديمي علمي يتناول ما هو معروف، مثقَلٍ بالهوامش، والإحالات، والتعليقات. فنحن نتوجَّه بهذا الكتاب إلى الناشئة، متوخّين قبل كل شيء، الأخذَ بأيديهم وتشجيعَهم على قراءة كتب التراث، واستقاءِ ما فيها من متعة وفائدة. ويمثّل هذا التوجُّهُ، فيما يمثّله، سعياً لتبديد ما يخالط بعض الأذهان من اعتقادٍ يكاد يصبح يقيناً بأن كتب التراث عسيرةُ القراءة، عصيةٌ على الفهم، مكتوبةٌ بلغةٍ عتيقة، مقعّرة، وألفاظٍ مهجورة لا سبيلَ إلى التواصل معها اليوم... صحيح أن هذه الصعوبة موجودة حقّاً، كما في لغة كلّ تراث قديم. غير أنها صعوبة نسبية، وطبيعية. وما المبالغة في تضخيمها إلا أشدُّ خطراً منها. ونحن نرى أن تخطّي هذه المشكلة يتطلَّب إقامة جسر بين الناشئة ومختارات من التراث مشوّقة وميسَّرة، أي: نحافظ فيها على لغة كاتبها، ولغة عصرها، من جهة، وتكون موضع قدْر محدود من التصرّف، تمليه الضرورة، من

جهة ثانية. هذا التصرف يتضمّن، أوّلاً، استبعادَ جُمَلٍ وتعابيرَ وتفاصيلَ فات زمانُها، أو ليست جوهرية الآن، ولا يُخلّ تعديلُها أو إغفالُها بفهم سياق النص المختار ولا بمعناه، وثانياً، توضيحَ كلمة بمرادفة عصرية أحياناً. على ألا يطال التصرّف إلا عبارات أو مفردات محدَّدة في النص تفيض عن حاجة الفتيان أو قدرتهم على الفهم، ولا تتلاعب بالنص إضافةً أو تحويراً.

وهكذا، لو كانت الغاية تنحصر في إطلاع الناشئة على حياة المسعودي (أو غيره من الأسلاف عرباً وعجَماً)، والتعريف بعصره، ورحلاته وأعماله... لكان لنا طريقةٌ أخرى في السير إلى بلوغ تلك الغاية، أو بالأحرى لامتنعنا عن كتابة ما نحن مقدمون على كتابته، ولاكتفينا بما هو موجود من مؤلَّفات، وأبحاث، أو في موسوعاتٍ، وكتب تاريخية عامة، أو تعليمية، أو متخصصةٍ في هذا الموضوع.

وعليه، فإننا نَعُدُّ نجاحاً لقصدنا إذا ما تمكَّنّا من جعل قارئ هذا الكتاب يشعر بالشوق إلى / والرغبة في قراءة كتب التراث، سواءٌ في ذلك كتبُ المسعودي وغيره، وعدم الاكتفاء بالشائع والمسموع، أو بتلقُّف متفرّقات الأخبار المبثوثة اعتباطاً هنا وهناك، وعلى صفحات الإنترنيت، مثلاً.

سنكون قد حقّقنا الأمل في تحرير القارئ الفتيّ من خوف التراث، ففتحنا الباب لتحريك خياله، وإغناء قاموسه اللغويّ، وساهمنا في ترسيخ يقينه بفائدة العودة يوماً إلى المصادر الأولى، والتفاعل مع أساليبها، ومفرداتها، وتذوُّق جمالياتها، سواءٌ في ذلك كتبُ الجاحظ، والتوحيدي، والمسعودي، وابن رشد، و"حماسةُ أبي تمّام، و"المدينة الفاضلة" للفارابي، و"رسالة الغفران" للمعرّي،...

والحال، إنَّ تصوُّرَنا الغايةَ على هذا النحو من وضْع كتاب للناشئة عن المسعودي هو ما حَكَمَ طريقة اختيارنا ما اخترناه من "مروج الذهب"، وهو ما جرّأنا أيضاً على اللجوء عند الضرورة إلى حذف عبارة عسيرة، أو لفظة مهجورة، وإلى شرح بعض الجُمَل والكلمات، أو وضع مرادف لها، أو توضيح معناها بين قوسين أو في الهامش... كما أننا كثيراً ما اضطُررنا إلى تجميع أخبار ومعلومات عن موضوع معيَّن، كانت متفرقة على صفحات مختلفة من "مروج الذهب"، لتبدو وكأنّها نصٌّ واحدٌ، متكاملٌ نرجو أن يجده القارئ أسهلَ تحصيلاً، وأجدى نفعاً، وأكثر إمتاعاً.

د. نوفل نيُوف

دمشق/ تمُوز ٢٠١٠

* * *

المسعودي في سطور

ولد الرحّالة، الجغرافيّ والمؤرِّخ العربي الشهير أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي في عاصمة العباسيين بغداد، في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). ولئن كان المؤرِّخون والباحثون يؤكّدون أن وفاته كانت سنة (٣٤٥ – ٣٤٦ هـ/ ٩٥٦ م)[١]، فليس هناك أي إجماع على سنة ميلاده. بل إن الإشارة إلى سنة ميلاده تصل ببعضهم أحياناً إلى درجة من التناقض والعجب[٢].

---

(١) قد يكون خطأ مطبعياً قول د.حسين محمد فهمي في كتابه "أدب الرحلات. الكويت، عالم المعرفة، رقم ١٣٨، ١٩٨٩، ص٩٦" أن المسعودي "توفّي عام ٣٤٦هـ/٩٠٧م" (؟!) بدلاً من التاريخ الصحيح ٩٥٦ م.

(٢) يتّضح من كتب المسعودي بجلاء، كما سنرى، أنه بدأ رحلاته سنة ٣٠٠ أو ٣٠١هـ ، أي إنه كان في العشرين من عمره أو حوالي ذلك. وهذا يعني أنه وُلِد قبيل وصول المعتضد بالله (سنة ٢٧٩ هـ) إلى الحكم، أو في أوّل سنتين من حكمه، على أبعد تقدير.
غير أن د. علي حسني الخربوطلي، في كتابه: (المسعودي. سلسلة "نوابغ الفكر العربي" - ٣٨، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨) يجعل سنة ميلاده حوالي عام ٢٨٧ هـ / ٨٩٨ م، وربّما لهذا السبب يقول إن

يتّصل نسب المسعودي بالصَّحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذي خرج إلى العراق يعلِّم الناس هناك القرآن والسنّة، أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفّان. ولَمّا وقع خلاف بشأن المصاحف بينه وبين عثمان استدعاه إليه في المدينة وآذاه. وكان ذلك من

= أوّل رحلة له خارج بغداد كانت سنة ٣٠٩هـ، إذ هيهات أن يكون بدأ رحلاته وهو بعدُ ولَدٌ في الرابعة عشرة من عمره!

ولا سند لقول كاتب مادة "المسعودي" في ("الموسوعة العربية"، المجلَّد ١٨، ص٥٧٣) بأن المسعودي بدأ رحلاته سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م، وقام برحلتين فقط، زار في الأولى فارس والهند والصين وعُمان وجزيرتَي مدغشقر وزنجبار، وفي الثانية أذربيجان (!) والشام، وتوفِيَ عن خمسة وثمانين عاماً (!)، و"بلغت مؤلفاته سبعة عشر كتاباً"! فالثابت، كما سنرى لاحقاً، هو أن عدد مؤلفاته المفقودة يزيد على ثلاثين!

وإذا كان كراتشكوفسكي يذكر في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. بيروت، ١٩٨٧" أن المسعودي ولد في بغداد في بداية القرن العاشر الميلادي (!)، فإن "الموسوعة العربية العالمية" (المملكة العربية السعودية. ج ٢٣، ١٩٩٦، ص٢٤٨) تكتفي بذكر سنة وفاته (٣٤٦هـ/ ٩٥٧ م)، وتقول إنه "ولِد ببغداد في بداية القرن الرابع الهجري" (!)، وله رحلة إلى "بلاد فارس عام ٣٠٣هـ/٩١٥ م" (؟!). غير أن هذا يعني، لو صحَّ، أن المسعودي بدأ رحلاته وعمره أقلُّ من ثلاث سنوات!

أسباب ثورة أهل العراق على الخليفة عثمان. وبعدئذ استقرَّت أسرة المسعودي (نسبة إلى الجد ابن مسعود) في العراق، تشتغل في ميادين العلم والأدب، بعيداً عن السياسة، إلى أن أُنشِئت بغداد، في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، فسكنت فيها.

وقد جاء مولد المسعودي في عهد الخليفة المعتضد بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م. ولكنّ المعلومات التي وصلت إلينا عن طفولته وحياته في عاصمة العباسيين قليلةٌ نادرة. إلا أن الثابت هو أنه أمضى زهرة شبابه في بغداد التي كانت مركزاً حضارياً عالمياً لا يضاهى في ذلك العصر. إذ كانت تضم أغنى المكتبات، وأشهرَ العلماء والفقهاء. وقد عاش المسعودي في كَنَفِ أسرته العربية العريقة التي عملت على تزويده بقسط وافر من العلم والثقافة. وظلَّ في عاصمة العباسيين إلى أن غادر العراق، وبدأ الترحال وهو في مقتبل الشباب.

وإذا كنا لا نعرف عن نشأة المسعودي وحياته الشخصية وأسرته إلا قليلاً، فإن التراث العربي ذكره وتحدّث عن مؤلّفاته ورحلاته. وقد وردت معلومات مستفيضة عن إنتاجه العلمي، ونشاطه بوصفه جغرافياً ومؤرِّخاً ومثقَّفاً، في كتب ابن النديم، والنجاشي، وابن حزم، والذهبي، والسبكي، وابن خلدون الذي سمّاه "إمام الكتّاب والباحثين"...

لقد كان أعلام القرن الثالث الهجري، كالطبري واليعقوبي وابن قتيبة الدَّيْنَوَري والبلاذِري...، في طليعة من تأثَّر بهم المسعودي. وإذا كان أكبر عيوب المؤرخين العرب قبل ابن خلدون يكمن، كما يرى علي أدهم[١]، في أنهم لا يتجاوزون الوصف والسرد سنة بعد سنة، مكْتَفين بتدوين ما هو متناقل من أخبار، فإن المسعودي خرج على طريقة السرد التاريخي القديمة (الرواية عن السلف: حدَّثنا فلان، عن فلان...إلخ)، ولم يلجأ إلى طريقة التأريخ بالسنين. كذلك يُعيب الباحث علي أدهم على الطبري أنه "لم يفكر في تعليل الحوادث، ولم يحاول تعرُّفَ أسبابها"[٢] ولا البحث عن أسبابها الاجتماعية العميقة. وهو يستشهد بوقوف ابن خلدون ضد الاعتماد على الأخبار دون تحكيم العقل والنظرة النقدية، ويورد قوله في "المقدّمة": "وكثيراً ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمَّةِ النقل المَغالِطُ (الأغلاط) في الحكايات والوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثّاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر

---

(١) علي أدهم. بعض مؤرخي الإسلام. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤.

(٢) علي أدهم. المرجع السابق. ص٤٤.

والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط"[١].

على أن المسعودي اقترب خطوة من طريقة التحليل التاريخي، وتقصّي الدوافع والأسباب، ولم يسلِّم بصحة كل ما كان متداولاً قبله من أخبار ومعلومات. فقد بذل جهده، بقدْر ما سمحت له ظروف عصره، في أن يضع أموراً كثيرة موضعِ الاختبار، والمشاهدة، والتحليل، والمقارنة... فلم يدَعْ شيئاً وقع عليه نظره، أو عرض له، أو استرعى انتباهه من ظواهرَ طبيعيةٍ، وعاداتٍ، وأديان، ووقائعَ، وثقافات إلا أعمل فكره فيه، وسجّله بموضوعية وحياد، بعيداً عن التعصُّب والهوى، واعياً قيمة هذه الفضيلةِ حقَّ الوعي. فهو القائل عن كتابه "مروج الذهب": "لم أنتصر فيه لمذهب، ولا تحيَّزت إلى قول، ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم، ولم أعرض فيه لغير ذلك" (ج ٤، ص ٣٨٦).

ولئن كان المسعودي قد سار على خُطا اليعقوبي، معاصرِ الطبري، فإنه أضاف إلى طريقته ما يمكن أن يوصَف اليوم بالجمع بين الدراسات التاريخية والجغرافية. وتتَّصف كتب المسعودي بنظرةٍ أعمقَ وأكثر دقة ممّا كانَ عليه أسلافه من

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

الجغرافيين والرحالة العرب كالمقدسي والبيروني. وبينما يُعَدّ الإصْطَخْري وأبو الفداء ممَّن اتَّبعوا طريقة المسعودي، ينظر الباحثون إلى صاحب "المقدِّمة" ابنِ خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) على أنه من أبرز مَن نسجوا على منوال المسعودي الذي لم ينجُ من نقده العادل، رغم اعتراف ابن خلدون بما لسلفه العظيم من أفضال علمية كبيرة.

كما حظيَت أعمال المسعودي باهتمام كبير من قبل المستشرِقين(١) الأوروبيين، ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر. وكان الفرنسي م. دوسون في القرن التاسع عشر أوّل من أطلق على المسعودي اسم هيرودوت(٢) العرب. وأصدر الفرنسيون أوّل تحقيق علمي لكتاب المسعودي "مروج الذهب" (١٨٦١ – ١٨٧٧). وحقّق الهولندي م. دي غويه " كتاب التنبيه والإشراف" (١٨٩٤)، ثم ترجمه ب. كارّا دي فو إلى الفرنسية (١٨٩٧). وفي القرن العشرين تزايد عدد المهتمّين الغربيّين بـ المسعودي، فحقّق

---

(١) المسشرِق هو مَن تعلم من لغات الشرق واحدة أو أكثر، فتعمّق في دراسة الشرق تاريخاً وعلوماً وثقافة...

(٢) هيرودوت مؤرِّخ ورحّالة إغريقي شهير، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٨٢ - ٤٢٥). سمِّيَ "أبا التاريخ".

المستعرِب الفرنسي شارل بيلا طبعة علمية جديدة من "مروج الذهب"؛ ووضع المستعرِب الروسي دميتري ميكولسكي عام ١٩٩٨ كتاباً عن المسعودي سمّاه "هيرودوت العرب"[١].

كانت الدراسات في عصر المسعودي تنقسم إلى قسمين:

١ - دراسات دينية تتناول القرآن والحديث،

٢ - وأخرى دنيوية تتناول التاريخ، والجغرافية، والفلسفة، والمنطق، والطب، والرياضيات، والكيمياء.

وبقي جوهر هذه الثنائية في النظر إلى العلوم قائماً، رغم اختلاف الصياغة، فاستمر هذا التقسيم زمناً طويلاً. ففي الجزء الأوّل من كتابه "العِبَر وديوان المبتدأ والخبر" يقول ابن خلدون الذي ولِد بعد وفاة المسعودي بحوالي أربعة قرون:

"إن العلوم صنفان: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره؛ وصنف نقلي يأخذه عمَّن وضعه. والأول يشمل العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها.

---

(١) دميتري ميكولسكي. المسعودي هيرودوت العرب. ترجمة د.عادل اسماعيل، مراجعة د.نوفل نيوف. دمشق، دار المدى، ٢٠٠٥.

والثاني يشمل العلوم النقلية الوضعية، وهي مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا إلحاق الفروع في مسائلها بالأصول"(١).

كان المسعودي منذ صغره يحب القراءة، ويقدِّر الكِتابَ عالياً. ويظهر ذلك من تضمينه "مروج الذهب" أقوالاً للحكماء عن الكِتاب، منها، مثلاً:

"الكتاب نِعْمَ الجليس والعُمدة. إن شئتَ ألهتْك نوادرُه، وأضحكتك بوادرُه. وإن شئت تعجبتَ من غرائب فوائده. وهو ميتٌ ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء. وهو مؤنِسٌ يَنْشَطُ بنشاطك وينامُ بنومك، ولا نعرف جاراً أبَرَّ، ولا خليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أجمعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ولا أقلَّ جنايةً، ولا أجدى نفعاً، ولا أحمدَ أخلاقاً، ولا أدْوَمَ سروراً، ولا أعجلَ مكافأة.

إن نظرتَ إليه أطال إمتاعَك، وشحذ طباعَك، وأيَّد فهمَك، وأكثر علمَك، وتعرف منه في شهرٍ ما لا تأخذه من أفواه الرجال في دهرٍ.

---

(١) نقلاً عن : د. علي حسني الخربوطلي. المسعودي. سلسلة "نوابغ الفكر العربي" - ٣٨، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨، ص ٣٢.

وهو المعلّم الذي لا يجفوك، وهو الذي يطيعُك بالليل طاعتَه لك بالنهار"[1].

ونقرأ عند ميكولسكي أن اهتمام المسعودي كان منصبّاً على الدراسات التاريخية والجغرافية. فقد كانت الجغرافيا علماً متطوّراً عند العرب، فحاولوا قياس درجات طول الكرة الأرضية أيام المأمون (٨٢٧ م)، في حين لم تقم أوروبا بمحاولات من هذا النوع إلا في القرنين السادس عشر والثامن عشر.

ويضيف المستعرب الروسي ميكولسكي أنه بعد أكثر من ألف عام بيّن المستعرب الإيطالي نالّينو، والرياضي الألماني شوي، أن علماء الفلك العرب لم يخطئوا في عملهم هذا إلا بمقدار كيلو متر واحد. على أن سبب هذا الخطأ يعود إلى عيوب أدوات القياس في تلك الأيّام. وكانت أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة تستخدم ما توصّل إليه العرب من اكتشافات وإنجازات علمية، وبفضلهم اكتشف كولومبوس أمريكا. وقد أقيم في عهد المأمون مرصدان فلكيّان، الأول في حي الشمّاسية في بغداد، والثاني على جبل قاسيون قرب دمشق.

---

(١) المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر (أربعة أجزاء). تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحّام. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠. ج٢، ص٧٣. (سنكتفي لاحقاً بالإشارة إلى الجزء والصفحة من هذه الطبعة تحديداً).

الفصل الأوّل

وصفُ بغـداد

كانت بغداد زمن ولادة المسعودي فيها ما تزال مدينة حديثة العهد. وقد بنيت هذه المدينة في عهد الخليفة العبّاسي الثاني أبي جعفر المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥ م) بأيدي مئة ألف فلاح عراقي وسط بلاد الرافدين. فسمّيَت دار السلام. وجعلها المنصور عاصمة الخلافة العباسية، بدلاً من دمشق التي كانت عاصمة الأمويين. وكانت بغداد في البداية دائرية الشكل، يقع في وسطها قصر الخليفة، وله قبة خضراء عليها تمثال حصان، وحول القصر توجد أحياء يعيش فيها الخدم وجنود الحراسة والتجّار والصنّاع. وكان القصر محاطاً بسور، والأحياء بسور آخر وخندق عميق. وفي كل سور أربعة أبواب يحرسها جنود يسهرون على أمن الخليفة والمواطنين. وبقيت القبة حتى خربّتها الحرب التي دارت بين الأمين والمأمون، ولدَيْ هارون الرشيد. فقد ظهر التنافس بينهما باكراً، وكان الكُرْهُ قوياً واضحاً، لأن كلاً

منهما كان يريد أن يكون الأقرب إلى أبيه. وكانت أمّ المأمون جارية، بينما أمّ الأمين هي زبيدة زوجة هارون الرشيد الشرعية. وعندما تولّى الأمين الخلافة عيّن أخاه المأمون والياً على ولاية خُراسان الإيرانية الغنية. ولكنه أراد أن يجعل من ابنه موسى الصغيرِ السن وريثاً للعرش بدلاً من المأمون، فنشبت بينهما حرب قُتِل فيها الأمين وتولّى المأمون الخلافة[1].

ويحدثنا المسعودي بألم شديد عن خَلْع الخلفاء العباسيين وتنصيبهم على أيدي الجنود الأتراك. فإذا كان الأمين أوّلَ خليفة عباسي يموت قتلاً، فإن المتوكّل (٨٤٧ – ٨٦١ م) كان أوّلَ خليفةٍ عباسي يقتله حرّاسُه الأتراك. وكان الخليفة المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢ م) مولعاً بشراء العبيد الأتراك، وتعليمهم فنونَ الحرب، واتّخاذهم حرّاساً له حتى بلغ عددهم حوله أربعة آلاف رجل. وقد أدرك المسعودي خطورة الجنود الأتراك الذين شجّعهم نجاحُهم على قتل المتوكّل، فشاركوا في قتل خلفاء آخرين...

ولكنَّ بغداد توسّعت على ضفاف دجلة، فأُقيمت فيها دار الخلافة، وقصورٌ، ومساجدُ، وحدائقُ، وبساتين. وكانت بِرَك

---

(١) لمزيد من المعلومات عن بناء بغداد وتوسعها، انظر: ميكولسكي، دميتري. المسعودي هيرودوت العرب (مرجع سبق ذكره).

القصور مزيّنة بأزهار اللوتس، والحدائق مزروعة بأنواع الورود، والنرجس، وشقائق النعمان، والبنفسج، والياسمين، والرمان، والقرنفل، والزنبق، والريحان، والأزاهير التي تملأ الجو بروائحها الزكية العطرة. ولم يبخل بعض الخلفاء بإنفاق الأموال على شراء الأشجار والنباتات من الهند، ونقلها عبر عُمان والبصرة. ويصفُ المسعودي حياةَ الحكّامِ، وطباعَهم، ولباسَهم، وحرَّاسَهم، وآدابَ الدخولِ عليهم والتحدثَ إليهم. كما ويرسم لوحة كبيرة للولائمِ الليليةِ ولَعِبِ الشطرنج، ولأسواقِ بغدادَ وحمّاماتِها، ودكاكينِها وبضائعِها، وأطعمتِها وتجّارِها من عربٍ، وفُرْسٍ، وهنودٍ، وصينيين.

غير أن سببَ شُهرةِ بغدادَ ليس القصور، والحدائق، والتجارة، بل هو أنها كانت مركزَ عِلْمٍ وثقافة يقصده طلاب المعرفة من جميع شعوب دولة الخلافة. كان الأولاد، وهم ما بين الخامسة والسابعة من العمر، يتعلمون القراءة والكتابة بحفظ القرآن الكريم على يد شيخ الجامع في كل حيّ. ويدرسون التفسير، والسيرة النبوية، والحديث الشريف. ثم ينتقلون إلى قراءة الشعر العربي وحفظه، من الجاهلية حتى أيامهم. وكان ذلك يتطلّب من التلميذ الجدَّ، والذكاءَ، والرغبةَ، والصبرَ الطويل. وبعد ذلك يستمع

الطالب إلى أساتذةٍ من كبار العلماءِ يُلقون دروسَهم في المساجد، ويعطون الطالبَ شهادةً بكلِّ كتابٍ حفظه غيباً، ونسَخَه أيضاً. ويستمرُّ الطالبُ بالاستماع والحفظ حتّى يصبحَ عالماً. ولم يكنِ الناسُ قد عَرَفوا آلاتِ الطباعةِ بعدُ، فكانت الكتبُ تُنسَخ بخطّ اليد، وهي صَنعة يقوم بها نسّاخون غالباً ما يكونون من أبناء الفقراء. أمّا بيع الكتب فيقوم به الورّاقون في دكاكينهم. وكانت المكتباتُ المنزلية في بيوت الميسورين ببغداد عادةً معروفة منذ أيام الخليفة المنصور الذي جمع مكتبة ضخمة في دار الخلافة. ولمّا وصلت مكتبة الخليفة إلى المأمون (٨١٣ – ٨٣٣ م) بالوراثة، جعل منها مؤسسةً علمية شهيرة تُعرَف بـــ" دار الحكمة". وكانت مكتبة الخليفة في بغداد، أيامَ المسعودي، تحتوي على أكثر من مئة ألف مخطوط مجلّد، في حين لم تكن أكبر مكتبة في أوروبا تضمُّ أكثر من بضع مئات من المخطوطات. كما شاعت مكتبات الوقْف التي كان يتبرع بها أصحابها للمساجد ليقرأ مخطوطاتها من يريد. وكان أي شخص يأتي إلى بغداد يستطيع الحصول على ما يريد من الكتب، بل وعلى غرفة للإقامة، وأحياناً على بعض المال للمصروف الشخصي.

الحياة السياسية في عصر المسعودي

دامت مرحلة الازدهار في عهد الخلافة العباسية قرناً من الزمن (١٣٢ - ٢٣٢ هـ). ثم حلّت مرحلةٌ سيطر فيها الأتراك تدريجياً على مقاليد الأمور، فباتوا مستبدّين، يتحكَّمون بالسلطة وتنصيب الخلفاء: يخلعونهم، أو يقتلونهم، أو يسملون عيونهم... إذا ما بدرت منهم أي بادرة ترمي إلى استعادة السلطة الحقيقية أو الاستقلال بالقرار. وانتشر الانحلال والفوضى في السياسة والإدارة والحياة العامة.

وقد وصف المسعودي أوّلَ خليفة عبّاسيّ عاصره، وهو المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، فقال إنه كان حازماً، عادلاً: "وكان مع ذلك قليل الرحمة، كثير الإقدام، سفّاكاً للدماء، شديد الرغبة في أن يُمَثِّلَ بمن يقتله"[(١)].

وكان المعتضد بالله أوّل مَن منع الورّاقين من بيع كتب الفلسفة والفكر، ومنع القصاصين من الجلوس في الطريق.

وفي عهده بدأ تفكُّك دولة الخلافة العباسية. فقد استولى عَمْرو بن الليث الصفّار على معظم بلاد فارس؛ وظهر القرامطة في

---

(١) المسعودي. مروج الذهب... ج ٤، ص ٢٣٢.

الكوفة بزعامة حمدان قرمط، وفي البحرين بزعامة أبي سعيد الجنابي؛ وقام ابن حوشب في اليمن بنشر الدعوة الفاطمية؛ وقام أبو عبد الله الشيعي بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب...

ومهّد المعتضد بالله الأمور لابنه المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ)، فراح يقلِّد أباه. وفي عهده ازدادت أحوال الخلافة سوءاً، وكثرت الاضطرابات. غير أن عهده شهد أيضاً سقوطَ الدولة الطولونية على يد قائده محمد بن ليمان الكاتب سنة ٢٩٢ هـ، وزوال نفوذ قرامطة الشمال سنة ٢٩٤ هـ.

يقول المسعودي في "التنبيه والإشراف"[١] عن المكتفي بالله:

"كان مالُه جمّاً، وجيوشُه كثيفة، [...]، ولم يكن ممن يوصف بشجاعة ولا بجبن" (ص ٣٧١).

ويصفه في "مروج الذهب" بأنه: "كان مع ذلك بخيلاً ضيِّقاً" (ج٤، ص٢٨٠).

وفي عام ٢٩٥ هـ آلت الخلافة إلى المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) وعمرُه ثلاثَ عشرةَ سنة.

غير أنه عُزِل، فتولّى الخلافة بعده المرتضي بالله وهو الشاعر عبد الله بن المعتزّ.

---

(١) المسعودي. التنبيه والإشراف. ليدن، مطبعة بريل ١٨٩٣، دار صادر، بيروت.

وسرعان ما انتشرتِ الفوضى والقتل والنهب في بغداد نتيجة اندلاع الصراع بين أنصار الخليفة المعزول، المقتدر، والخليفة الجديد، المرتضي بالله. وقد تمكّن المقتدر من استعادة الخلافة، فألقى بخصمه المرتضي (ابن المعتزّ) في السجن، وظلَّ في سجنه حتى مات.

يقول المسعودي في كتاب "التنبيه والإشراف" عن المقتدر إنه تولّى الحكم وهو:

"صغيرٌ غِرٌّ تَرِفٌ، لم يُعانِ الأمور، ولا وقف على أحوال المُلْك. فكان الأمراءُ والوزراء والكتّاب يدبِّرون الأمور، ليس له في ذلك حَلّ ولا عَقْد، ولا يوصف بتدبيرٍ ولا سياسة. وغَلَبَ على الأمر النساءُ والخدَمُ وغيرُهم. فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعُدد بسوء التدبير الواقع في المملكة، فأدّاه ذلك إلى سفك دمه، واضطربت الأمور بعده، وزال كثير من رسوم الدولة" (ص ٣٧٧).

أمّا ابن المعتز فيصِفُه المسعودي في "مروج الذهب" بأنه شاعر بارع، كان:

"أديباً، بليغاً، شاعراً، مطبوعاً، مجوِّداً، مقتدِراً على الشعر، قريبَ المأخذ، سهلَ اللفظ، جيِّدَ القريحة، حسَنَ الاختراع للمعاني" (ج٤، ص٢٩٣).

وقد عاصر المسعودي هذين الخليفتين، وشهد ما عاشت البلاد في عهدهما من أهوال وتقلُّبات.

وقام المسعودي بإحدى رحلاته[1] خارج عاصمة الخلافة العباسية في تلك الفترة العصيبة، فغادر بغداد في سنة ٣٠٩ هـ في عهد الخليفة المقتدر بالله:

"تاركاً بغداد تضطرم بنيران الصراع حول السلطة والنفوذ، وبالفوضى والاضطرابات. فقد انصرف الخليفة المقتدر إلى اللهو والمجون، وتدخلت النساء في الحكم، واستبدّت أمّه بالسلطة، وكانت تسمّى (السيدة)، فكانت تتدخل في تعيين الوزراء، بل ولَّت قهرمانتها (ثومال) النظرَ في المظالم"[2].

---

(١) وليس بأولى رحلاته، كما جاء في كتاب د.علي حسني الخربوطلي في كتابه المذكور آنفاً عن المسعودي، ص ٩.

ولا سيّما أن المسعودي يشير مراراً في "مروج الذهب" إلى رحلاته في مطلع القرن الرابع الهجري (بعد سنة ٣٠٠، وسنة ٣٠٣ و٣٠٤...إلخ).

وهذا ما يؤكد أنه بدأ رحلاته سنة ٣٠١هـ. (انظر، مثلاً: المقدِّمة في كتاب: المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. عُنيَ به د.محمد هشام النعسان، عبد المجيد طعمة الحلبي. دار المعرفة، بيروت، ج١-٢، ط١، ٢٠٠٥، ص٥).

(٢) د.علي حسني الخربوطلي. المسعودي... ص٩.

ثم تفشّتِ الفوضى والاضطرابات من جديد في بغداد بعد مقتل المقتدر وانتقال الخلافة إلى أخيه القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢هـ). ولم يَطُلِ العهد بالخليفة الجديد القاهر بالله حتى خُلع وسُمِلت عيناه، ولم يمض على خلافته إلا سنةٌ وستة أشهر.

ولا يتردَّد المسعودي في الإدلاء بإدانة صريحة لِما اتّصف به القاهر من طيش وقسوة، فيقول إنه كان:

"شديدَ الإقدام على سفك الدماء، أهوجَ، محبّاً لجمع المال على قلّته في أيامه، قليلَ الرغبة في اصطناع الرجال، غيرَ مفكر في عواقب أموره، راكباً روعَه، واطئاً عشواتِه[1]، يريد التشبُّه بمن تقدّم من آبائه، فلا يمكنه ذلك لسوء تدبيره وقبح سياسته" ("التنبيه والإشراف"، ص ٣٨٨).

وباعتلاء الراضي بالله عرشَ الخلافة في بغداد (سنة ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) تبدأ مرحلة من الانهيار السياسي لم يسبق أن عرَفتْ سلطةُ العباسيين مثيلاً لها من قبل. فقد تخلّى الخلفاء العباسيون عن السلطة الحقيقية لبعض رجالهم الذين لقِّبوا باسم (أمير الأمراء). فوضع هؤلاء أنفسهم فوق الوزراء، وحلّوا عملياً محلَّ الخلفاء

(١) راكباً روعه، واطئاً عشواته: أي عنيداً، راكباً رأسه، لا يُحكِّم عقله، يسير في سياسته وسلوكه خبط عشواء، لا يبالي أين يضع قدمه.

الذين انصرفوا إلى حياتهم الخاصة، تاركين السلطةَ وحياةَ الناس نهباً للسرقة، والسطو، والمصادرة... والفسادِ من كل نوع.

كان الراضي آخرَ خليفة عبّاسيٍّ خُطِب له على مِنبرٍ يومَ الجمعة، ولم تكن سلطته تتعدّى بغداد وضواحيها.

وكان حكم الخليفة المتّقي لله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) منذ بدايته صراعاً دمويّاً مديداً سقطت بغداد خلاله بأيدي جيش من الأتراك والديلم يقوده أبو الحسن البريدي. ثم تناوب البريديون والحَمْدانيون على احتلال بغداد، فانتشر فيها اللصوص، وارتفعتِ الضرائب، ومات الناس جوعاً. ولجأ الخليفة إلى الحَمْدانيين خارج بغداد، ولم يعد إليها إلا بدعم مالي كبير طلبه سنة ٣٣٢ من محمد بن طغج الأخشيد حاكم مصر. غير أن الأتراك بزعامة توزون مُنَوَّهُ بالوعود، ولمّا صدّقهم وعاد إليهم سملوا عينيه وألقوا به في السجن، ونصَّبوا المستكفي بالله الذي دام حكمه حوالي سنة وأربعة أشهر (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ).

وبعد ذلك، في تلك السنة (٣٣٤ هـ) دخل البويهيون الفُرسُ بغداد، فسملوا عينَي المستكفي دون قتله، ووضعوا مكانه خليفة هو المطيع لله (٣٢٤ - ٣٦٣ هـ). وسادت الفتن الطائفية في عهد المطيع لله الذي كان آخرَ خليفة عباسي عاصره المسعودي (توفّي سنة ٣٤٥هـ).

١- المسعودي والعلم والعلماء في عصره

أ. كروية الأرض والجاذبية

قد يبدو غريباً أن يكون المسعودي منذ القرن العاشر الميلادي يؤمن بكروية الأرض وبالجاذبية. غير أنه يتحدث بوضوح في "مروج الذهب"عن الكواكب والأفلاك، وعن:

"الدلائل على أن السماء على مثال الكرة وتدويرها بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة. وأن الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة، وأن كرة الأرض مثبّتة في وسط السماء كالمركز، وقدْرُها عند قدْرِ السماء قدْرُ النقطة التي في الدائرة صِغَراً <...>. وأن الأرض مع ما وصفنا تدويرَها موضوعةٌ في جوف الفلَك كالمُحَّة في البيضة. والنسيم جاذب أيضاً لِما في أبدان الخلق من الخفّة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، إذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب بطبعه الحديد" (ج٢، ص ٢١٧ - ٢١٨).

وعندما يتحدث المسعودي عن خط الاستواء، والقطبين، وأقاليم الأرض السبعة نجده يذكر أسماء أكبر العلماء الذين سبقوه في هذا المجال من يونانٍ وعرب، وينتقد مَن ينسب إلى نفسه عِلْمَ غيره، فيقول، مثلاً:

"وقد حرّر ذلك في كتابه أبو حَنيفة الدَّيْنَوَريّ، وقد سلب ذلك ابنُ قتيبة ونقله إلى كتبه نقلاً وجعله عن نفسه! وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبي حنيفة الدَّيْنَوَريّ (الذي) كان ذا محلٍّ من العلم كبير. ولـــ بطليموس في كتاب المجسطي، وغيرِه ممّن تَقدّم، ثمّ لمَن طرأ بعد ظهور الإسلام، مثل الكِنْدي، وابن المنجِّم، وأحمد بن الطيِّب، وما شاء الله، وأبي معشر، والخوارزمي، ومحمد بن كثير الفرغاني فيما ذكره في كتابه "الفصول الثلاثين"، وثابت بن قرّة، والتبريزي، ومحمد بن جابر البتّاني، وغير هؤلاء ممن قد عُنيَ بعلوم الهيئة، علومٌ كثيرة في هذا المعنى" (ج٢، ص ٢١٩).

ب - أســـاتذته

كان من بين أساتذة المسعودي في بغداد علماء مشهورون، منهم الواقدي، وابن دريد، والأنباري، وأبو بكر الصولي. وقد اطّلع المسعودي، كما نرى في كتبه، على أعمال طائفة كبيرة من الجغرافيين العرب الذين عاصروه أو سبقوه، أمثال اليعقوبي، وقدامة بن جعفر، والرياضي الكبير الخوارزمي، والفيلسوف الكندي، والجغرافي والفلكي البتّاني الذي ذاعت شهرته في أوروبا تحت اسم باطيغينوس، وغيرهم.

لقد كان المسعودي يحلم بوضع كتابٍ عن جغرافية الأرض وتاريخ الشعوب.

ففي أيامه كانت معروفةً جيّداً أوّلُ خريطةٌ للعالَم. وكان العرب قد اعتمدوا في وضع تلك الخريطة على علم الخرائط (الرسم الكرتوغرافي) لِـ مارينوس، وكتاب الجغرافيا لِـ بطليموس، وذلك في الربع الأوّل من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بتكليف من الخليفة المأمون (توفِّيَ سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م). وشارك في وضعها "العديد من الفلَكيين والرياضيين والجغرافيين المكلَّفين بصنع جغرافيا وصفية تشمل خريطة للعالم وعدداً من الخرائط الجزئية على أساس قياساتهم ورحلاتهم الخاصة في معظم الأحوال"[١].

ويلقي العالِمُ التركي، الألمانيُّ الجنسيّة، فؤاد سِزكين الضوءَ على ظهور هذه الخريطة فيقول إنها لم تكتَشَف إلا في مطلع ثمانينات القرن العشرين، وإنه يحتفظ بنسخة منها مأخوذةٍ من موسوعة عربية تعود إلى سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م.

---

(١) سِزكين، فؤاد. مختارات من الجغرافيا الرياضية والكرتوغرافيا عند العرب والمسلمين واستمرارها في الغرب. نقلها عن الألمانية مازن عمّاري. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا ، ٢٠٠٠، ص ٣١ - ٣٢.

جـ - ثقافَته ونظرته النقدية

حقاً، إن من يقرأ كتب المسعودي يستدل على سعة ثقافته بسهولة. وتظهر جليَّةً في كتابه "التنبيه والإشراف" معرفتُه الواسعة بالعلوم، وتاريخ الفرس، وفلسفة اليونان، وديانات العالم... وتكفي نظرة سريعة إلى الباب الأوّل من كتابه "مروج الذهب" (ص٢٠ - ٢٦) ليرى القارئ قائمة طويلة بأسماء المؤلفين الذين سبقوه وعاصروه، وتقويماً أو نقداً لكتب بعض منهم. ففي تلك الصفحات نراه، مثلاً، يُثني ثناء خاصّاً على الطبري، قائلاً:

"وأمّا تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلَّفات، والزائد على الكتب [المصنَّفات]، فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم. وهو كتاب تكثر فائدته، وتنفع عائدته. وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره، وناسك دهره، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار، وحَمَلَة السنن والآثار!" (ج١، ص ٢٣).

ويثني أيضاً على تاريخ أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عَرَفَة الواسطي النحْوي الملقب بـــ نفطويه الذي يصفُه بأنه:

"أحسنُ أهل عصره تأليفاً، وأملحُهم تصنيفاً" (ج١، ص ٢٣).

كذلك يُقدِّر المسعودي عالياً ما كتبه محمد بن يحيى الصولي لأنـــه:

"ذكر غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرَّد بها لأنه شاهدها بنفسه. وكان محظوظاً من العلم، ممدوداً من المعرفة، مرزوقاً من التصنيف وحسن التأليف" (ج١، ص ٢٣ - ٢٤).

كما يُشيد بالكاتب قدامةَ بنِ جعفر:

"فإنه كان حسن التأليف، بارعَ التصنيف، موجِزاً للألفاظ، مقرِّباً للمعاني" (ج١، ص ٢٤).

بينما يوجِّه المسعودي نقده إلى معاصره ثابت بن قرَّه الذي كان عالِماً بعلم إقليدس والفلك والفلسفة... فينحو عليه باللائمة لأنه كتب واشتغل بغير العلوم التي يجيدها:

"حين انتحل ما ليس من طريقته <...>. عيبُه أنه خرج عن مركز صناعته، وتكلَّف ما ليس من مهنته" (ج١، ص ٢٤ - ٢٥).

ولا يفوت المسعودي أن ينتقد الجاحظ الذي ظَنّ أن نهر مهران في بلاد السند هو من نهر النيل بدليل وجود التماسيح في كلا النهرين (ج١، ص١٠٩).

كذلك يصحح المسعودي ما ذكره الجاحظ في كتابه "الحيوان" عن أن الكركدن (وحيد القرن) يكون في بطن أمه سبع سنين، في حين أن: "حَمْلَه وفصالَه كالبقر والجواميس. ولستُ أدري كيف

وقعت هذه الحكاية للجاحظ، أَمِن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها؟" (ج١، ص١٨٣).

ويستغرب المسعودي هذه وغيرها من ظنون الجاحظ وأخباره، فيلومه، ويعزو أغلاطه إلى سببٍ رئيس، قائلاً:

"لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار (...)، وإنما كان ينقل من كتب الورّاقين" (ج١، ص١٠٩).

إلا أن المسعودي ينظر بموضوعية وإنصاف إلى الجاحظ فيصف كتبِه بأنها: "تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظَمها أحسنَ نظم، ورصَفَها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ <...>. وسائر كتبه في نهاية الكمال <...>، ولا يُعلَم ممّن سلف وخلف من المعتزلة أفصحُ منه" (ج ٤، ص ١٩٦ - ١٩٧).

يقول كاترمير في ما يُعّدُّ شهادة على ثقافة المسعودي وسعة اطلاعه:

"إذا ما نظر الإنسان إلى كتبه بُهِت من تنوُّع الموادّ التي كتب فيها، ومن كثرة المسائل المهمة العويصة التي حلّها. والحق، أنه كان واسع الفضل في الزمن الذي ولِد فيه، لا لأنه قرأ جميع الكتب الخاصّة بالعرب وتأمّل فيها فقط، بل لإحاطة مباحثه

الواسعة بتاريخ اليونان والرومان وجميع أمم الشرق حديثِها وقديمِها أيضاً"[1].

وفي مقدِّمته يذكر عبد الله الصاوي الذي "راجع وصحَّح" ما يُعتَقَد أنه جزء من كتاب المسعودي "أخبار الزمان"، طبعة سنة ١٩٣٨، أن هذا الرحّالة الكبير "كان ملمّاً بعدَّة لغات، وكان ذا حظ وافر من الثقافات".

ويذكر باحثون أن المسعودي تعلَّم كثيراً من اللغات، كالفارسية والهندية واليونانية والرومية والسريانية.

فهو يكشف عن دراية واسعة بكتب اليونان ("الجغرافيا" و"المجسطي" لبطليموس، و"المنطق" لأرسطو...)، ويذكر أسماء أكثر من مائة من مشاهير العلماء والأدباء والمؤرخين الذين قرأ كتبهم، ويعبِّر عن رأيه فيهم وفيما كتبوه. فهو يشير إلى ما خُصَّ به كل منهم من ميزات وصِفات جعلته أهلاً للتقدير والتفرُّد في علمه.

ويظهر جليّاً من أقوال المسعودي الكثيرة مدى تدقيقه وحرصه على تمحيص ما يقرأ أو يسمع أو يرى، وذلك توخِّياً للأمانة العلمية، وسعياً منه لبلوغ الحقيقة التي يقبلها المنطق ويمكن

---

(١) نقلاً عن: د. علي حسني الخربوطلي. المسعودي... مرجع سابق، ص ٥٣.

إثباتها. فهو ينفي ما كان شائعاً، مثلاً، من أن بحر قزوين متصل بالبحر الأسود، فيقول في هذا الخصوص:

"وقد غلط قومٌ زعموا أن البحر الخزري (بحر قزوين) يتصل ببحر مانطس (البحر الأسوَد). ولم أرَ فيمن دخل بلاد الخزر من التجار ومَن ركب منهم في بحر مانطس ونيطس (بحر مرمرة) إلى بلاد الروس والبلغَر (البلغار) أحداً يزعم أن بحر الخزر يتصل ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها <...>. وسنذكر كيف دخل الروس في المراكب إلى بحر الخزر، وذلك بعد الثلاثمائة (٣٠٠ هـ). ورأيت أكثر مَن تعرَّض لوصف البِحار ممن تقدَّم وتأخَّر يذكرون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطس (بحر مرمرة) يتصل ببحر الخزر! ولست أدري كيف ذلك، ومن أين قالوه؟ أَمِن طريق الحَدْس أم من طريق الاستدلال والقياس؟ <...> ولم أترك ممَّن شاهدتُ من التجار ممَّن له أدبٌ وفهمٌ ومَن لا فهمَ عنده من أرباب المراكب إلا سألتُه عن ذلك، وكلٌّ يخبرني أنْ لا طريق له إليها (إلى بلاد الخزر) إلا من بحر الخزر حيث دخلتْ إليه مراكب الروس..." (ج١، ص ١٣٦).

ويورد المسعودي فيما وصلَنا من كتبه كثيراً من الشعر والحديث عن الشعراء والعلماء والفقهاء في عصره. ونجد عنده

كذلك تقويماً لأولئك الأعلام وما أبقوه للأجيال بعدهم. ومن ذلك، مثلاً، قوله عن الشاعر ابن بسّام (ت. ٣٠٣هـ):

"كان شاعراً لَسِناً، مطبوعاً في الهجاء. ولم يسلم منه وزير ولا أمير، ولا صغير ولا كبير. وله هجاء في أبيه وإخوته وسائر أهل بيته" (ج٤، ص ٢٩٦).

د. المسعودي وتحكيم العقل

نقرأ في الجزء الأول من "مروج الذهب" (ص ٢١١) أخباراً تناقلتها العرب عن كائنات مزعومة كالعَرْبَد، والنسناس، وعنقاء مُغرِب، وعن خلْق الخيل....إلخ. غير أن المسعودي عندما يعود إليها في الجزء الثاني من كتابه نراه يُخضِعها لحكم العقل، ولا يؤكّد صحتها، بل يقول إنها "من هَوَسِ العامّة واختلاطها" (ص ٢٢٦). ويعقِّب على خبر النسناس والعربد قائلاً:

"واللهُ أعلم بصحة هذا الخبر، وليس لنا في ذلك إلا النقل، وأن نعزوه إلى راويه، وهو المقلَّد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه"(ص ٢٢٦ - ٢٢٧).

وتعقيباً على ذِكرِه ما يزعمه الناس من أخبار عن النسناس والعنقاء وخلْقِ الخيل، يبرّئ المسعودي ذِمَّتَه فيضيف في مكان آخر:

"ولولا أن المصنِّفَ حاطبُ ليل لِذِكْرِه في تصنيفه من كل نوع لَمَا ذكرنا هذه الأخبار، إذ إن الناس من أهل العلم والدراية في قبول الأخبار على وجوه" (ج٢، ص ٢٢٩). أي إنَّ المؤلِّف، وهو مَن يجمع الأخبار في كتاب، يدوِّن كل شيء، وأهل المعرفة يختلفون في قبول هذه الأخبار أو رفضها. تلك كانت طريقة القدماء.

وزيادة في توضيح موقفه من هذه المرويّات التي تبعث على الشك بصحتها، يُشدِّد المسعودي على رسم منهجه العلمي في الكتابة بقوله القاطع:

"وما ذكرناه من حديث النسناس والعنقاء وخَلْق الخيل فغيرُ داخلٍ في أخبار التواتر الموجبة للعمل، واللاحقة بما أوجب العمل دون العلم، ولا بالأخبار المضطرة لسامعها إلى قبولها عند ورودها واعتقاد صحتها عن مُخبِرها. وهذا النوع من الأخبار قد قدَّمْنا أنها في حيِّز الجائز الممكن الذي ليس بواجب ولا ممتنع" (ج٢، ص ٢٣٠).

ويوجِّه المسعودي نقده الصريح لبعض "ما زعم الأخباريون من العرب، وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد من الأمر المفهوم" (ج٢، ص ١٤٦)، أي لما يجده من أخبار متداولة، ولكنها منافية للعقل.

وعندما يذكر أخباراً لا يقوم عليها برهان تاريخي، أو يصعب تصديقها، نراه يحتكم في قبولها أو رفضها إلى موقف الشريعة والدين منها، فيقول في "مروج الذهب":

"وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين، وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها. وليس قصدنا من ذلك وصْفَ أقاويل أصحاب القِدم، لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلِّمين للحقِّ، وأخبارَ الشياطين على حسب ما نطق به الكتاب المنزل على النبي المرسَل، وما قارن ذلك من الدلائل الدالّة على صدقه (صلعم)، وإعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِه" (ج ٢، ص ٨٣).

فالمسعودي يؤكد فيما يرويه على أهمية العقل والبرهان وصحة الدلائل، ويبتعد عن تصديق كل ما هو مخالف لذلك، أي عن تصديق ما لا يقوم إلا على الشائع والمنقول، والرواية، فيقول:

"وقد أتينا، بحمد الله، على شرح ذلك، وما انتظم من الدلائل الدالة على مصداق ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا في هذه المعاني المقدَّم ذكرها. ولم نتعرَّض لذكر ما لم يصح عندنا في العالم وجودُه حسّاً ولا خبراً قاطعاً للعذر ولا دافعاً للرِّيَب ومزيلاً للشك

كأخبار العامة في كون النسناس، وأن وجوههم على نصف وجه الناس، وأنهم ذوو أنياب، وقولهم في عنقاء مُغْرِب.

وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثةُ أجناس: ناس، نسناس، ونسانس. وهذا محال من القول. لأن النسناس إنما وقع هذا الاسم على السُّفْلة من الناس والرُّذال. وقد قال الحسن: ذهب الناس وبقيَ النسناس.

وقال الشاعر:

ذهب الناس فاستقلّوا، فصرنا خَلَفــاً في أراذل الــنسنـــاس

أراد بهما وصفْنا: أي ذهب الناس وبقيَ مَن لا خير فيه.

وقد ذهب كثير من الناس إلى أن الجن نوعان: أعلاهم وأشدُّهم الجنُّ، وأخفضهم وأضعفهم الحِنّ. وأنشد الراجز:

مختلِفٌ نَجْــرُهُمُ جِــنٌّ وحِــنٌّ

وهذا التفصيل بين الجنسين من الجن لم يَرِدْ به خبر، ولا صحَّ به أثر، وإنما ذلك من توهُّم الأعراب على حسب ما بيَّنّاه آنفاً.

وقد غلب على كثير من العوامّ الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في العالم، كالأخبار عن وجوده في الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية. فبعضهم يخبر

عن وجودها في المشرق، وبعضهم في المغرب. فأهل المشرق يذكرون كونها بالمغرب، وأهل المغرب يذكرون أنها بالمشرق. وكذلك كل صقعٍ من البلاد يشير سكّانُه إلى أن النسناس فيما بعُد عنهم من البلاد ونأى من الديار. <....>

ووجدتُ أهلَ الشِّحر من بلاد حضرموت وساحلها، وهي الأحساء مدينة على الشاطئ من أرض الأحقاف، وهي أرض الرمل وغيرها ممّا اتّصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عُمان وأرض المَهْرَة، يستطرفون أخبار النسناس إذا ما حدثوها، ويتعجّبون من وصفه، ويتوهّمون أنه ببعض بقاع الأرض ممّا قد نأى عنهم وبَعُد، كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم. وهذا يدلّ على عدم كونه (عدم وجوده) في العالم، وإنما ذلك من هَوَس العامّة واختلاطها" (ج٢، ص ٢٢٦).

كذلك ينظر المسعودي من زاوية ما نسميه اليوم بالسيكولوجيا (علم النفس) إلى ما يُعرَف بـــ "الهواتف والجان" (والهواتف هي ما يهتف "بصوتٍ مسموع وجسمٍ غيرِ مرئي"). فهو يوردُ رأياً يقول إن هذه الأشياء تعرض للناس بسبب: "التوحُّد في القِفار، والتفرّد في الأودية، والسلوك في المَهامِهِ والبراري الموحِشة. لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحَّدَ تَفكَّرَ، وإذا هو تَفكَّرَ وَجِلَ وجَبُنَ. وإذا هو جَبُنَ داخلتْه الظنون الكاذبة، والأوهام

المؤذية، والسوداوية الفاسدة، فصوَّرت له الأصوات، ومثَّلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، بنحو ما يعرِض لذوي الوساوس. وقُطْبُ ذلك وأُسُّه سوءُ التفكير، وخروجه على غير نظام قويّ أو طريقٍ مستقيم سليم. لأن المتفرِّد في القِفار والمتوحِّد في البراري مستشعِرٌ للمخاوف، متوهِّمٌ للمتالف، متوقِّعٌ للحُتوف. (وذلك) لقوَّة الظنون الفاسدة على فكره، وانغراسها في نفسه، فيتوهَّم ما يحكيه من هَتْف الهواتف به واعتراض الجان له" (ج٢، ص ١٦٥).

هـ. كتبُـه

يكثر المسعودي في "مروج الذهب" من الإشارة إلى كتابين من كتبه المفقودة، متلازمين دائماً، وهما:

١ - "أخبار الزمان ومن أباده الحِدْثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة"، فيعدُّه أشملَ كتبه، وأكثرَها إحاطة بما كان معروفاً من تاريخ العالم حتى عصره. ويقع كتاب "أخبار الزمان" في ثلاثين جزءاً لم يبقَ منها إلا جزء واحد في مكتبة فييّنا، ونسخة من ذلك الجزء في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وأخرى في المكتبة الأهلية بباريس[1].

---

(١) د. علي حسني الخربوطلي. المسعـودي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٣٧.

٢ - "الكتاب الأوسط" الذي يُعَدُّ وسَطاً بين "مروج الذهب" و"أخبار الزمان". ويعتقد بعض الباحثين أن في مكتبة أُكسفورد نسخة منه، وأنه "توجد في بعض دور الكتب في دمشق بعض أجزاء هذا الكتاب، وإن كان من العسير الجزم بذلك"[١].

ويذكر المسعودي في تقديمه لكتاب "التنبيه والإشراف" سبعة من كتبه التي وضعها واحداً تلو الآخر، فيرتِّبها على النحو التالي: "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والممالك الداثرة"، "الكتاب الأوسط"، "مروج الذهب"، "فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف"، "ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور"، "الاستذكار لِما جرى في سالف الأعصار" (ص٢)، ثم الكتاب السابع المختصر وهو "التنبيه والإشراف" الذي يؤرِّخ فيه لما وقع من أحداث "إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع" (ص ٦).

حين يريد المسعودي أن يتحاشى الاستطراد والإطالة وهو يروي خبراً أو واقعة، أو يصف بلاداً أو نهراً، أو يتحدث عن مذهب أو موضوع أو سياسة، نجده يقول إن ذلك موجود في كتابيه المذكورين أعلاه: "قد أتينا على ذكره في كتابنا أخبار الزمان، وفي الكتاب الأوسط"[٢]، أو ما يشبه ذلك.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٢) مثلاً، في: مروج الذهب، ج١، ص ٦٥، ٧٦، ٧٨، ٩٥، ١١٥، ١٤٣ ...إلخ. ويتكرر ذلك حتى نهاية الجزء الأخير من الكتاب.

على أن المسعودي وضع كتبه الثلاثة هذه واحداً تِلْوَ الآخر، أي بتسلسلٍ زمنيٍّ هو: ١ - "أخبار الزمان"، ٢ - " الأوسط "، ٣ - "مروج الذهب". إذ يقول: "وقد أتينا في الكتاب الأوسط الذي كتابُنا هذا تالٍ له، والأوسط تالٍ لكتابنا أخبار الزمان" - ("مروج الذهب"، ج ٤، ص ٣٨٣).

ويؤكِّد المسعودي مراراً كثيرة أنه لا يضع نفسه في هذا الكتاب ("مروج الذهب") موضع المؤرِّخ الباحث والمحلِّل، فيقول في الجزء الأوَّل، مثلاً: "إن كتابنا هذا كتابُ خبر، لا كتاب آراء ونِحَل" (ج١، ص ٦٩)؛ ثمَّ: "كتابُنا كتابُ خبر، لا كتاب بحثٍ ونظر" (ج١، ص ٨٨)؛ "وقد ذكرنا في مواضعَ كثيرةٍ من كتابنا هذا جُملاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنِّحَل، وذلك على طريق الخبر" (ج١، ص ٤٠ - ٤١)؛ ويذكِّر المسعودي بكتبه حول المذاهب والبِدع... قائلاً إنه لا يسجِّل في "مروج الذهب"إلا: "لُمَعاً على طريق الخبر والحكاية للمذهب، لا على طريق النظر والجدل" (ج١، ص ١٠٦)...

ويُحصي الباحثون ما يزيد على ثلاثين كتاباً مفقوداً[1] من تأليف المسعودي الذي يذكر عناوين ثمانية عشر كتاباً منها في

---

(١) انظر قائمة بأسماء تلك الكتب في كتاب: د. علي حسني الخربوطلي. المسعودي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٤٢ - ٤٣.

متن كتابه "التنبيه والإشراف"، اثني عشر كتاباً في "مروج الذهب".
ومن تلك الكتب المفقودة:

"أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية..."،

"الكتاب الأوسط"،

"ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور"،

"الإبانة عن أصول الديانة"،

"المقالات في أصول الديانات"،

"حدائق الأذهان"،

"القضايا والتجارب"،

"أخبار أهل البيت رضيَ الله عنهم"،

"سرّ الحياة"،

"الدعاوى"،

"الرؤيا والكمال"،

"طبّ النفوس"،

"نظم الأدلة في أصول الملة"،

"الاستبصار في الإمامة"،

"الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره"،

"الصفوة في الإمامة"... إلخ.

غير أنه لم يصل إلينا من تلك الكتب كلّها إلا:

جزء واحد من كتابه الشامل الأول "أخبار الزمان ومن أباده الحِدثان..."،

و"مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك" في أربعة مجلَّدات،

و"التنبيه والإشراف" الذي كتبه في الفسطاط سنة ٣٤٤ هـ ثم زاد فيه وصححه في سنة ٣٤٥ هـ.

* * *

الفصل الثاني

رحلاتـــه

يتحدث المسعودي في مستهلِّ كتابه الشهير "مروج الذهب ومعادن الجوهر" عن أسفاره ورحلاته التي يختلف الباحثون في تقدير مدَّتها. وتراوح تقديراتهم تلك المدةَ ما بين خمسة وعشرين عاماً وأربعين عاماً.

ويصف تلك الرحلات والأسفار في معرِض اعتذاره عمّا قد يكون في كتابه من تقصير، فيعزو ذلك إلى:

"ما قد شاب خواطرَنا، وعَمَرَ قلوبَنا من تقاذف الأسفار وقَطْعِ القِفار، تارةً على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعلِمين بدائعَ الأمم بالمشاهدة، عارفين خواصَّ الأقاليم بالمعاينة، كقطْعِنا بلادَ السند والزنج والصين، وتقحُّمِنا الشرقَ والغرب. فتارة بأقصى خُراسان، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والران والبلقان، وطوراً بالعراق، وطوراً بالشام" (ج١، ص ١٨ - ١٩).

ونقرأ في عدد من المراجع[1] أن خروج المسعودي من بغداد في أوّل رحلة له كان سنة ٣٠٩هـ، وأن تلك الرحلة استمرت ثلاث سنوات قضاها متنقلاً بين ربوع فلسطين، وفارس، وأرمينية، وكرمان. ثم استقرّ فترة في إصْطَخْر من بلاد فارس، أيامَ الخليفة المقتدر بالله. وتزعم المراجع المذكورة أن المسعودي سافر بعد ذلك بعام واحد (أي سنة ٣١٠هـ) إلى الهند، وزار مدنها، وتنقل بينها، وسكن مدة في مدينة بومباي. ومن هناك سافر بحراً إلى الصين، وطاف المحيط الهادي فوصل إلى مدغشقر، وعاد إلى عُمان.

غير أننا نتبيَّن خطأ هذه التواريخ من أقوال المسعودي نفسه وهو يصف في "مروج الذهب" بلادَ السند والقندهار والمولتان وكابُل والقشمير" (ما يُعرف اليوم بباكسان وأفغانستان وإقليم كشمير)، عندما يقول: "وكان دخولي إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة (٣٠٠ هـ). وكذلك كان دخولي إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت" (ج١، ص ١٧٩).

كما يحدثنا المسعودي عن بحر الزنج وسفره فيه قبل ذلك التاريخ (أي قبل ٣٠٩ هـ) بسنوات. إذ يقول في "مروج الذهب"، مثلاً:

---

(١) د. علي حسني الخربوطلي. المسعودي... ص ٢٦.

"وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، من بلاد عُمان (وسنجار قصبة بلاد عُمان) مع جماعة من نَوَاخذة[1] السيرافيين <...>. وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلاثمائة (٣٠٤ هـ)[2] من مدينة قنبلو إلى مدينة عُمان<...>. وقد ركبت عدّة من البحار، كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أُحصيه كثرة، فلم أشاهد أَهْوَلَ من بحر الزنج" (ج١، ص ١١٨).

ويضيف بعد عدة صفحات قائلاً:

"ورأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند <...> وفيما يليها، مثل مدينة سندارة وسَريارة، وكان دخولي إليها في سنة ثلاث وثلاثمائة (٣٠٣ هـ)، والملك يومئذ بانيا، وكان برهمانياً من قِبَل البلهري صاحب المانْكير. وكان لِـ بانيا هذا عناية بالمناظرة مع مَنْ يرِد بلاده من المسلمين وغيرهم من أهل المِلل" (ج١، ص ١٢٦).

ويؤكد في مكان آخر من "مروج الذهب":

"وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلاثمائة (٣٠٤ هـ)..." (ج١، ص٢٢١).

---

(١) هم القباطنة والبحّارة.

(٢) وضعنا خطّاً تحت هذه العبارة واثنتين بعدها إبرازاً للتواريخ التي أكّدها المسعودي نفسه.

وهذا ما يشجِّع على القول بثقة، مع باحثين آخرين[1]، إن المسعودي بدأ رحلاته سنة ٣٠١هـ، فأمضى ثلاث سنوات في بلاد فارس وكرمان. وفي سنة ٣٠٣ هـ كان مقيماً في إصْطَخْر، ومنها سافر إلى الهند والسند وسرنديب (جزيرة سيلان)، وأبحر إلى الصين[2]. وفي طريق العودة مرّ بمدغشقر

---

(١) انظر المقدِّمة في: المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. عُنيَ به د.محمد هشام النعسان، عبد المجيد طعمة الحلبي. دار المعرفة، بيروت، ج١ -٢، ط١، ٢٠٠٥.

(٢) يقول المسعودي في بداية "مروج الذهب" إنه سافر كثيراً وقطَعَ "بلاد السِّند والزنج والصنف والصين والزابج" (ج١، ص ١٩). وهذا ما جعل بعضهم يظن خطأً أنه زار الصين وشاهد مدنها وخالط سكانها... فالدكتور علي حسني الخربوطلي، مثلاً، يقول في كتابه المذكور أعلاه عن المسعودي إنه "من أقدم الرحالة الذين رحلوا إلى بلاد الصين وجابوا مدنها" (ص ٧٠). والصواب هو أن المسعودي اكتفى بالمرور بسواحل تلك البلاد، ولم يقم برحلة إلى الصين ولم ينزل أراضيها. وهذا ما يؤكِّده المستشرق ميكولسكي في كتابه المذكور عن المسعودي. ثم إننا بالعودة إلى الفصل الذي كتبه المسعودي في الجزء الأول من "مروج الذهب" عن ملوك الصين وأخبارها نجد المؤلف لا يدلي بحرف عن مشاهداته، بل هو يستخدم بوضوح: "وحُكيَ" (ص ١٥١)، "وأخبرني أبو زيد الحسن بن زيد السيرافي في البصرة" (ص ١٥٦)... إلخ.

وزنجبار وعُمان. وبعد رحلة قصيرة إلى البلدان المحيطة ببحر الخزر (بحر قزوين) سنة ٣١٤هـ، نزل في طبرية بفلسطين، وزار أنطاكية وثغور الشام (مدن الحدود الشامية) سنة ٣٣٢هـ، وفي السنة نفسها عاد إلى البصرة بالعراق، ثم سافر إلى الفسطاط بمصر...

ويتّفق هذا التفصيل لرحلاته مع القائلين بأن المسعودي قام في عام ٣١٤ هـ برحلة إلى مناطق أذربيجان وجورجيا، وتجوَّل في الشام وفلسطين. وفي سنة ٣٣٢ هـ قصد أنطاكية والثغور الشامية، ثم ظل يتنقل بين العراق وسورية ومصر. وقد استقر في فسطاط مصر التي كان يحكمها الإخشيديون تلك الأيام. وفي الفسطاط أكمل المسعودي (سنة ٣٣٦ هـ) كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي بدأ بكتابته سنة ٣٣٢ هـ.

وقد شملت رحلاتُه الطويلةُ الهندَ، وإيرانَ، وساحلَ أفريقيا الشرقي، وحوضَ قزوين، ومنطقةَ القوقاز، وشبهَ الجزيرة العربية، وسورية، فضلاً عن موطنه العراق. ثم استقرّ في مصرَ، حيث أمضى آخرَ سنواتِ حياتِه، وتُوُفّيَ حوالي عام ٩٥٧ ميلادية. وقد وصَلَنا من مؤلّفاتِه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، و"كتاب التنبيه والإشراف"، وجزء واحد من "أخبار الزمان".

على أن المسعودي لم يكتفِ بالترحال ووصفِ الأحوال والعادات والأديان أينما حلّ، بل ترك لنا معلومات صحيحة عن بلدان وشعوب لم يستطِع زيارتها. فعندما يحدثنا عن حاكم الواحات في بلاد النوبة، الواقعة بين مصر والحبشة، يقول إنه التقى صاحب هذا الحاكم في قصر الإخشيد محمد بن طغج (مؤسس الدولة الإخشيدية) في مصر سنة ٣٣٠ هـ:

"وسألتُه عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجتُ أن أعلمه من خواصِّ أرضهم. وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممّن لم أصل إلى بلادهم" (ج٢، ص٢٧).

لقد كان المسعودي طَموحاً، واسع الاطّلاع، يعشق المعرفة. فنذر عمره للبحث عن حقيقة العالَم وجغرافيته وما فيه من بلدان وشعوب. وهو يلقي الضوء على الدوافع التي كانت وراء أسفاره وإنفاق عمره في الترحال، فيشير إلى حُبِّه الاقتداءَ بالعلماء والحكماء، وإلى سعيه لتأليف كتاب "مروج الذهب":

١ - كي "يُبقي للعالم ذِكراً محموداً، وعِلماً منظوماً، عتيداً"؛

٢ - لإدراكه أن "لكل إقليم عجائبَ يقتصر على علمها أهلُه، ليس من لَزِم جهة وطنه وقنع بما نُميَ إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسَّم عمره على قَطْع الأقطار، ووزّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدِنِه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" (ج١، ص٢٠).

لم يكن المسعودي مجرَّد رحّالة يسجِّل أهمَّ الوقائع التاريخية والمواقع الجغرافية والمعالم الكبرى فيما يمرُّ به من دول وبلدان. بل كان رحّالة نبيهاً يتوقَّف عند معلومات وتفاصيل قد تبدو ضئيلة الأهمية، ولكنها لا تقدَّر بثمن من وجهة نظر علم الاجتماع والإثنوغرافيا... كالحديث عن المناخ والتربة والأزياء والعادات الاجتماعية...إلخ. ونستدلّ على ذلك من بعضٍ ما كان محطَّ اهتمامِ المسعودي وموضعَ نظره في أثناء رحلاته. فهو يركِّز واعياً في "مروج الذهب"، ولا سيّما في الجزأين الأوّل والثاني منه، على ذكر كثير من أخبار العالم وخواصِّ بقاعه وأبنيته وجباله وعجائبه، وما فيه من بشَر وحيوان وغيره، وكذلك ما خُصَّ به كلُّ بلد من أنواع الفواكه دون غيره من البلدان، وما يُعرَف به الناس في كل بلد من اللباس والأخلاق دون غيرهم، وأنواع الأغذية والمآكل والمشارب والعادات.

بلاد فارس

انطلق المسعودي في أوَّلِ رحلة استكشافية له من بغداد مع قوافلِ التجار إلى إيران، وهو في حوالي العشرين من عمره. وقد اختار إيران ليشاهد ما بقي من أطلال قصور الفرس ومعابدهم التي كثيراً ما تحدث عنها العرب في كتاباتهم وأشعارهم. ومرّ في طريقه بالمدائن التي كانت عاصمة الملوك

الساسانيين، وبالقصر المعروف فيها باسم إيوان كسرى الذي كان هارون الرشيد معجباً به، كثير التردد عليه. وفي المدائن زار ضريح الصحابي سلمان الفارسي الذي أمر بحفر الخندق الشهير حول المدينة المنوّرة، عندما هاجمها المشركون.

ورأى المسعودي بين الري وطبرستان أعلى قمة في إيران، وعليها بركان دنباوند وارتفاعه ٥٦٠٤ أمتار. ثم اتجه جنوباً إلى مدينة قمّ التي كان لمدرستها في التاريخ والجغرافيا شهرة واسعة في العالم الإسلامي. وتوجّه بعد ذلك إلى أصفهان التي كانت قد وقعت فيها مذبحة قبل خمسين عاماً من زيارته، فرآها مدينة جديدة، يحيط بها سور منيع، محصّن بمائة برج وأربعة أبواب. كانت مدينة غنية تعود عليها مناجم الفضة القريبة منها بأرباح طائلة. وفيها أيضاً زار أطلال معبد زرادشتي يُعَدُّ في أشهر المعابد الوثنية الباقية على وجه الأرض. فقد كان المسعودي شديد الاهتمام بالزرادشتية، وهي ديانة وثنية ظهرت في إيران في القرن السادس قبل الميلاد على يد زرادشت الذي كان المسعودي حسن الاطلاع على مؤلفاته، وقدّم لها عرضاً وافياً في "مروج الذهب"، فقال إن النار في الزرادشتية هي إله الخير "أهورا مازدا" الذي لا يتوقّف عن الصراع مع إله الشر "أنهرا مانيا". ووالد هذين الإلهين هو الزمن السرمدي، واسمه الإله أردان.

ويؤمن الزرادشتيون بحلول يوم الحساب في آخر الزمان لينال أعداءُ إله الخير جزاءَهم عذاباً أبدياً...

وفي مدينة إصْطَخْر شاهد المسعودي معبداً زرادشتياً آخر، وقلعة مؤلّفة من ثلاثة أبراج قديمة تبعد عن المدينة أربع ساعات. وفي شيراز استضافته عائلة فارسية وأطلعته على كتاب تاريخي قديم يضمّ صور سبعة وعشرين من ملوك الساسانيين، فأُعجِب بألوان الصور، وحسن الخط في هذا الكتاب الذي يقول إن العرب ترجموه للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٣١م)، ولكنه لم يصل إلينا. ويصف المسعودي أطلال برج في مدينة جُوْر يعلو قمّته هيكلُ النار الذي يقول إن العرب دمّروه، وعن معبد آخر من معابد النار على بعد ساعة منه. ثم يتوجّه المسعودي من أقصى الجنوب إلى الشمال الشرقي ليصل بعد بضعة أسابيع إلى نيسابور التي بناها شهبور الأول (٢٣٩ – ٢٧٢ م) ابن الشاه الساساني الأوّل أردِشير. وكان ما يزال قائماً على جبل راوند القريب من نيسابور معبد من أهم المعابد الزرادشتية في إيران. ومن هناك يسافر إلى بَلَخ التي سمّاها العرب بعد استقرارهم فيها (٦٦٣ م) "أمّ البلاد". وكانت تنتشر فيها من قبل ديانات كالبوذية، والزرادشتية، والمانوية، والنسطورية المسيحية. وأهم مركز ديني في بلخ كان الدير

البوذي (النوبهار)، وهو البيت الرابع الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر. وكان يتوارث رئاستَه أجداد البرامكة الذين كانوا وزراء عند بني العبّاس أيام هارون الرشيد[1].

وتظهر روحُ الدعابة عند المسعودي وموقفُه من السياسة في عصره بقوله:

"وقد ذكر بعضُ أهل الرواية والتنقير[2] أنه قرأ على باب (النوبهار) ببلخ كتاباً بالفارسية ترجمتُه: "قال بوداسف (بوذا): أبواب الملوكِ تحتاج إلى ثلاث خِصال: عقل، وصبر، ومال". وإذا تحته بالعربية: "كذب بوداسف. الواجب على الحرّ إذا كان معه واحدةٌ من هذه الثلاث الخصال أن لا يلزم باب السلطان" (ج٢، ص٢٤١).

وكان قائد قوات المسلمين الضحاك بن قيس قد قام بتدمير النوبهار حين استولى على بلخ، فلم يرَ المسعودي منه إلا الأطلال.

ونقرأ في "مروج الذهب":

---

(١) انظر كتاب دميتري ميكولسكي الذي أشرنا إليه من قبل.

(٢) هذه الكلمة نستعملها اليوم، كقولنا: فلان نقّر على فلان، أي تناوله بلسانه دون أذى أو لؤم، بشيء من الدعابة والمزاح.

"وذُكِر عن الرشيد بعد القبض على البرامكة أنه بعث إلى يحيى بن خالد بن برمك، وهو في سجنه، يشاوره في هدم الإيوان (إيوان كسرى في المدائن)، فبعث إليه:

- لا تفعلْ.

فقال الرشيد لمن حضره:

- في نفسه المجوسيةُ والحنوُّ عليها، والمنعُ من إزالة آثارها.

فشرع في هدمه، ثم نظر فإذا يلزمه في هدمه أموال عظيمة لا تُضبَط كثرة، فأمسك عن ذلك، وكتب إلى يحيى يُعلِمه ذلك. فأجابه بأن يُنفِق في هدمه ما بلغ من الأموال، ويحرص على فعله.

فعَجِب الرشيد من تنافي كلامه في أوّله وآخره، فبعث إليه يسأله عن ذلك. فقال: - نعم. أَمَّا ما أشرتُ به في الأوّل فإني أردتُ بقاءَ الذكر لأمة الإسلام وبُعْدَ الصيت، وأن يكون مَن يرِد في الأعصار (العصور) ويطرأ من الأمم في الأزمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول: إن أمّة قهرت أمّة هذا بنيانُها فأزالت رسومها واحتوت على ملكها لأمّة عظيمة شديدةُ منيعة. وأمّا جوابي الثاني فأُخبِرتُ أنه قد شُرِع في هدمه ثمّ عُجِز عنه، فأردتُ نفيَ العجز عن أمّة الإسلام، لئلا يقولَ مَن وصفتُ ممّن يرِد في الأعصار: إن هذه الأمّة عجزت عن هدم ما بنته فارس.

فلمّا بلغ الرشيدَ ذلك من كلامه قال: - قاتَلَه اللهُ تعالى! فما سمعتُه قال شيئاً قَطُّ إلا صدق فيه. وأعرض عن هدمه" (ج١، ص٢٧٢).

ويكشف المسعودي عن معرفة عميقة وافية وشغفٍ بتاريخ الفرس، فنراه يستفيض بالحديث عن ملوكهم وأخبارهم، ويقول إن "هذا كله مشروح في الكتاب المترجم (المسمَّى) بكتاب "السكيكين" الذي ترجمه ابن المقفَّع من الفارسية إلى العربية<...>، وتعظِّمه الفُرس لِما تضمَّن من خبر أسلافهم وسِيَر ملوكهم" (ج١، ص ٢٣٨).

وهو يأتي على ذكر ملك الفرس لسهراب فيقول عنه إنه:

"عمَّر البلادَ، وأحسن السيرةَ لرعيّته، وشملهم بعدله. <.... >"ونال بني إسرائيل منه مِحَنٌ، وشتَّتهم في البلاد. <....> وقد ذكر كثيرٌ ممَّن عُنيَ بأخبار الفرس أن بخْتَنْصَر مَرْزُبانَ العراق والمغرب كان من قِبَل هذا الملك (لسهراب). وهو الذي وطِئ الشام، وفتح بيت المقدِس، وسبى بني إسرائيل، وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر. والعامة تسمّيه البخت نصر. وأكثر الإخباريين والقُصَّاص يغالون في أخباره، ويبالغون في وصفه <....> وإنما كان مَرزُباناً <....> وتفسير مَرْزُبان يُراد به رُبْعٌ من المملكة، وقائد عسكر، ووزير، وصاحب ناحية من

النواحي، وواليها. وقد كان حَمَل سبايا بني إسرائيل إلى الشرق، وتزوَّج منهنّ امرأة يقال لها دينارد، فكانت سبب رَدِّ بني إسرائيل إلى بيت المقدِس" (ج١، ص ٢٤٠).

ولمّا كان الاهتمام بالمذاهب والديانات واسعاً في عصره يحدِّثنا المسعودي عن ظهور زرادشت وانتشار المجوسية حديث العارف، ويقدِّم لنا تعريفاً جيِّداً بنبيّ المجوس زرادشت وبالمجوسية فيقول:

"زرادشت بن أسبيمان، وهو نبيّ المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس. واسمه عند المجوس بستاه. وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول<....> وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلِها، ولا يدركون كنه مرادها<....> وكُتِب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلَّد بالذهب، فيه وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهي، وغيرُ ذلك من الشرائع والعبادات. ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه، وسَمّوا التفسير "زنداً"، ثم عمل للتفسير تفسيراً وسمّاه "بازند"، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير، وشرحاً لسائر ما ذكرنا وسمّوا هذا التفسير "بارده". فالمجوس إلى هذا الحين يعجزون عن حفظ كتابهم المنزَل، فصار علماؤهم

وموابذتُهم[١] يفرضون على كثيرين منهم حفظ أسباع من هذا الكتاب، وأرباع وأثلاث، فيبتدئ كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه، ويبتدئ الثاني منهم فيتلو جزءاً آخر، والثالث كذلك، إلى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب، لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال... فلم تزل الملوك تعمل بما في هذا الكتاب إلى عهد الإسكندر وما كان من قتله لــ دارا بن دارا، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب<....> والفرس تسمّي دارا هذا باللغة الأولى من لغاتهم داريوس" (ج١، ص ٢٤١ - ٢٤٢).

وكان الإسكندر، عندما انتصر على الفُرْس، قد أخذ بنصيحة أستاذه الفيلسوف العظيم أرسطو، فقسَّم الإمبراطورية الفارسية إلى ممالك صغيرة يحكمها ما يُعرَف بــ "ملوك الطوائف"[٢] ليسهل عليه حكمها. ولعلَّ تلك النصيحة كانت أوَّل تطبيق سياسي واعٍ للمقولة الاستعمارية المعروفة: "فرِّقْ تَسُدْ". وفي هذا يقول

(١) الموبذ أو الموبذان مرتبة دينية عالية عند المجوس، مثل البابا عند المسيحيين الكاثوليك، ثم مثل مرتبة الأُسقُف.

(٢) من هنا أُطلِق اسم "ملوك الطوائف" على حكام الأندلس المسلمين الذين تفرَّقوا وتحاربوا فيما بينهم فضعفوا، واستقل كل واحد منهم بإقليم إلى أن انتهى حكمهم في تلك البلاد، وسقط آخر معقل لهم في غرناطة سنة ١٤٩٢م.

الرحالة والمؤرِّخ المسعودي إنَّ الإسكندر بن فِليبُس لمّا قتل دارا بن دارا:

"تغلَّب كل رئيس ناحية على ناحيته. وكاتبهم الإسكندر، فمنهم فُرْسٌ ونبيطٌ وعربٌ، وكان مراد الإسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتحزيبهم، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذي هو به، فينعدم نظام المُلْك. والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر.< ....> وقد نصبت كل طائفة لها ملكاً لعدم (وجود) ملك يجمع كلمتهم. وذلك أن الإسكندر أشار عليه معلِّمُه، وهو وزيرُه أرسطاطاليس، في بعض رسائله إليه بذلك. وكاتبَ الإسكندر ملك كل ناحية وملَّكه على ناحيته، وتوَّجَهُ وحَبَاه. فاستبدَّ كل واحد منهم بناحية، فصار مُلْكُه من بعده في عقبه، ممانعاً عمّا في يده، طالباً للازدياد من غيره" (ج١، ص ٢٤٦ - ٢٤٧)، أي انتقل الحكم إلى أولاده، يدافعون عمّا في أيديهم، ويطلبون الازدياد من أملاك غيرهم.

وبعد أن يذكر أسماء ملوك الطوائف وعدد سنوات حكمِ كلٍّ منهم، يقول المسعودي إن حكمهم دام ٥١٧ سنة:

"وذلك من مُلْك الإسكندر إلى أن ظهر أردِشير بن بابِك بن ساسان فغلب على ملوك الطوائف، وقتَل أردوان الملك بالعراق، ووضع تاج أردوان على رأسه. وكان قد قتله في مبارزة على

شاطئ دجلة، فهذا أوّل يوم يُعَدُّ منه ملك أردِشير لاستيلائه على سائر ملوك الطوائف. وتمهَّدت له البلاد، واستقامت دعائمها بملكه. فمِن ملوك الطوائف مَن قتَلَه أردِشير بن بابِك، ومنهم مَن انقاد إلى ملكه وأجاب دعوته"(ج١، ص ٢٤٧).

ووفاءً للأمانة والموضوعية يضيف المسعودي في الصفحة نفسها، فينبِّه أوّلاً على أنه: "قيل في تاريخ سنيّ ملوك الطوائف غير ما وصفنا، وإنّ مدَّتهم كانت أقلّ ممّا وصفنا"، وثانياً إلى أن سبب اعتماده هذه المعلومات جاء عن وعي واختيار مدعوم في نظره بحُجّة قويّةٍ مقنِعة:

"غير أن الذي حكيناه هو ما أخذناه عن علماء الفرس، وهم يراعون من تواريخ مَن سَلَفَ ما لا يراعيه غيرهم. لأن الفرس تدين بما وصفْنا قولاً وعملاً، وغيرهم من الناس يقول ذلك قولاً ولا ينقاد إليه عملاً".

ويولي المسعودي اهتماماً كبيراً لرسم صورة الملك أردِشير بن بابِك وحروبِه وأعماله في إصلاح السياسة، وأحوالِ الدولة والناس في زمانه. فقد قسّم هذا الملك خاصتّه إلى ثلاث طبقات:

١ - الأساورة (حُماة الحرب) وأبناء الملوك، وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك، على بُعد نحوٍ من عشرة أذرع. وهؤلاء بِطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم.

٢ - وجوه المرازبة (جمعُ مَرزُبان) وحكّام الولايات والأقاليم، ومجلُسهم يبعد مقدار عشرة أذرُع من الطبقة الأولى.

٣ - المضحِكون وأهل البطالة والهزل[١]، ومجلسها على بعد عشرة أذرُع من حدِّ مرتبة الطبقة الثانية. غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيسُ الأصل، ولا وضيعُ القدْر، ولا ناقصُ الجوارح[٢] ولا فاحشُ الطول أو القِصَر، ولا ابنُ ذي مهنة دنيئة: كابن حائك أو حجّام، ولو كان يعلم الغيب أو حوى كلَّ العلوم، مثلاً.

وكان أردِشير يقول:

"ما شيءٌ أضرّ على نفس ملكٍ أو رئيس أو ذي معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع. لأنه كما أن النفس تصلح على مخالطة الشريف الأريب الحسيب، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس، حتى يقدحَ ذلك فيها، ويزيلَها عن فضيلتها، ويثنيها عن محمودِ شريفِ أخلاقِها. وكما أن الريح إذا مرّت بالطِّيب حملت طِيباً تحيا به النفوسُ، وتتقوّى به جوارحُها، كذلك

---

(١) المهرِّجون عند الملوك.

(٢) أي من كان فيه أي عاهة أو عيب جسدي: أعور، أعرج، أشرم الشفة...إلخ. وذلك لاعتقادهم بأن العيوب الجسدية تسبب عيوباً نفسية وتُضعِف الروح وتحط من مكانة الإنسان.

إذا مرّت بالنتَن فحملته ألمَّت به النفس، وأضرَّ بأخلاقها إضراراً تامّاً. والفساد أسرعُ إليها من الصلاح، إذ كان الهدمُ أسرعَ من البناء. وقد يجد ذو المعرفة في نفسه عند معاشرة السُّفِلَة الوُضَعاء شهراً فسادَ عقلِه دهراً" (ج١، ص ٢٥٧).

ولعلَّنا نستطيع أن نستدلَّ على آراء المسعودي السياسية إذا ما دقَّقنا النظر في كثير من الوقائع والقصص التي يوردها في "مروج الذهب" ويصعب حصرُها. فهي في الظاهر وقائعُ وحكاياتٌ مشوِّقة، فيها عِبرة وإمتاع، ولكنها في باطنها تنطوي أيضاً على موقف من السياسة، وفهمٍ لها يرتدي ثوب الحكمة والرواية الحيادية... فمن ذلك، مثلاً، أن الملك الفارسي بَهرام بن بَهرام استمع إلى الموبذان (كبير رجال الدين عنده) وهو ينصحه قائلاً:

" - أيها الملكُ السعيدُ جدُّه، إن المُلْك لا يتمُّ عزُّه إلا بالشريعة. ولا قوامَ للشريعة إلا بالملِك. ولا عزَّ للملك إلا بالرجال. ولا قوامَ للرجال إلا بالمال. ولا سبيلَ إلى المال إلا بالعمارة. ولا سبيلَ إلى العمارة إلا بالعدل. والعدلُ الميزانُ المنصوب بين الخليقة، نصبه الربُّ، وجعل له قيِّماً وهو الملك.

قال الملك:

- أمّا ما وصفتَ فحقٌّ. فأَبِنْ لي عمّا تقصد، وأوضِحْ لي في البيـــان.

قال الناصح:

- نعم أيها الملك. عمدتَ إلى الضّياع فانتزعتْها من أربابها وعُمّارها، وهم أرباب الخراج[١] ومَن تؤخَذ منهم الأموال، فأعطيتَها الحاشيةَ والخدمَ وأهلَ البطالة وغيرَهم. فعمَدوا إلى ما تعجَّل من غَلاتها، واستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يُصلِح الضِّياع. وسومِحوا في الخراج لقربهم من الملك. ووقع الظلمُ على من بقيَ من أرباب الخراج وعُمّار الضياع، فانجلوا عن ضياعهم ورحلوا عن ديارهم، وآووا إلى ما تعزّز من الضياع بأربابه فسكنوه. فقلَّتِ العمارة، وخربت الضياع، وقلَّت الأموال، فهلَكَت الجنود والرعيَّة، وطمع في مُلْك فارس مَن أحاط بها من الملوك والأمم لعلمهم بانعدام الموادّ التي تستقيم بها دعائم الملك.

فلمَّا سمع الملك هذا الكلام أقام في موضعه ذاك ثلاثة أيام. وأُحضِرَ الوزراء والكتّاب وأرباب الدواوين، وأُحضِرت السجلات، فانتُزِعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية ورُدَّت إلى أربابها، وجرَوا على عاداتهم السالفة. وأخذوا في العمارة،

---

(١) في كتابه "بعض مؤرِّخي الإسلام" يعرِّف علي أدهم الخِراج بأنه جزء من النظام المالي في الإسلام، "كانت تؤديه البلاد التي فتحها المسلمون، وكان يختلف حسب فتحها عَنوة أو صلحاً أو بعهد" (ص١٢).

وقَويَ من ضعف منهم، فعمرت الأرض، وأخصبت البلاد، وكثرت الأموال عند جباية الضرائب. وقويت الجنود، وقُطِعت مواد الأعداء، وشُحِنت الثغور، وأقبل الملك يباشر الأمر بنفسه في كل وقت من الزمان، وينظر في أمر خواصّه وعوامّه، فحسُنت أيامه، وانتظم ملْكُه حتى كانت تُدعى أيامُه عيداً لِمَا عمَّ الناس من الخصب وشملهم من العدل" (ج١، ص ٢٦٦ - ٢٦٧).

وسأل الملكُ يَزْدجرْد بن بَهرام حكيماً:

" - أيها الحكيم الفاضل، ما صلاح الملك؟

فقـــال:

- الرِّفْقُ بالرعيَّة، وأخْذُ الحقِّ منهم من غير مشقَّة، والتودُّد إليهم بالعدل، وأمْنُ السبيل، وإنصاف المظلوم من الظالم.

قـــال:

- فما صلاح أمر الملك؟

فقـــال:

- وزراؤه وأعوانه. فإنهم إن صلحوا صلح، وإن فسدوا فسد.

وقال له يَزْدجرْد:

- إن الناس قد أكثروا في أسباب الفِتن، فصِفْ لي ما الذي يشُبُّها ويُنشِئُها، وما الذي يُسكِنُها ويدفنها؟

قـــال:

- يشبُّها ضغائن ويُنشئُها جُرأةُ عامَّةٍ ولَّدَها استخفافٌ بخاصّة، وأكّدها انبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسرٍ، وأملُ مُعْسِرٍ، وغفلةُ ملتذّ، ويقظةُ محروم. والذي يُسكِنها أخْذُ العُدَّة لِما يُخاف قبل حلوله، وإيثارُ الجدِّ حين يلتذُّ الهزل، والعملُ بالجزم في الغضب والرِّضا" (ج١، ص ٢٧٥).

السند والهند

السند هي الباكستان حالياً. وقد أسلمت على يد فاتحِها محمد بن القاسم (٧١٢ م) الذي لم يتقدم بعد نهر الهند بسبب وجود صحراء شاسعة. وفي بلاد السند زار المسعودي منطقة تعرف باسم مولتان لا تنقطع القوافل عن السير بينها وبين خُراسان، وفيها مدينة اسمها بؤورة (وهو اسم كل ملك يحكم القنوج في بلاد السند):

"يخرج منها أحد الأنهار التي إذا اجتمعت كانت نهر "مهران السند"<....> وبؤورة هذا الذي هو ملك القنوج هو ضد البلْهرا ملك الهند. وملك القندهار[١] من ملوك السند وجبالها يدعى ححج، وهو اسمه الأعمّ. ومن بلاده يخرج النهر المعروف "برائد"، وهو أحد الأنهار الخمسة التي منها نهر مهران السند".

---

(١) قَنْدَهار منطقة في أفغانستان اليوم.

والملك في مولتان من أولاد سَامة بن لؤي بن غالب: "وهو ذو جيوش ومَنَعَة. وهو (مولتان) ثغر من ثغور المسلمين الكبار <....> وفيه الصنم المعروف بالمولتان، يقصده السند والهند من أقاصي بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب، ويحجّ إليه الألوف من الناس. وأكثر أموال صاحب المولتان مما يُحمَل إلى هذا الصنم من العود القَماريّ الخالص الذي يبلغ ثمن الأوقيّة منه مائة دينار، وإذا ختِم بالخاتم أثّر فيه كما يؤثر في الشمع، وغير ذلك من العجائب التي تُحمَل إليه. وإذا نزلت الملوك من الكفّار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هدّدوهم بكسر هذا الصنم وتعويره (تخريبه)[1]، فترحل

(١) وهذا يذكّرنا بما دمّره المستعمرون الأمريكيون أواخر القرن الثامن عشر من "صروح فنية فريدة" للهنود الحمر: "إن إحدى قرى هنود النوتكا Nootka وتسمّى Opitstateh كانت تضمّ مئتَي بيت في غاية الإبداع. فهي جميعاً مرسومة الجدران والسقوف ومزيَّنة بتماثيل غريبة الأشكال. أمّا شبابيكها وأبوابها فلها شكل كائنات حيَّة، ولكي تدخلها عليك أن تعبر باباً له شكل الإنسان ورأس أحد الحيوانات. إنها ثمرة أجيال من العمل الفني دُمِّرت بلمح البصر وقُتِل جميع أهلها في مذبحة جماعية" (انظر: منير العكش. حق التضحية بالآخر. أميركا والإبادات الجماعية. دار رياض الريِّس للكتب والنشر. بيروت. ط١، ٢٠٠٢، ص٤٥).

كما يعيد إلى الأذهان قصة التماثيل البوذية التي دمَّرها رجال حركة "طالبان" في أفغانستان قبيل سقوط حكمهم عام ٢٠٠١.

الجيوش عنهم عند ذلك. وكان دخولي إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة (٣٠٠ هـ)، والملك بها أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي" (ج١، ص ١٧٨ - ١٧٩).

ثم قصد المسعودي عاصمة السند المنصورة، على اسم مؤسسها منصور بن جمهر الذي بناها عام ٨٧١ م. وكان المسعودي، وهو بعدُ في بغداد، قد قرأ كثيراً عن هذه المدينة في كتب النوبختي، والبلخي، واليعقوبي... ولكنه اكتشف كثيراً من الأمور الجديدة فيها، ووصف ملامحَ الهنودِ، ولونَهم، وبنيتَهم، وأزياءَهم. وشاهد لأوّل مرّة فيلاً عن قرب. ثم سافر إلى مدينة الديبُل، أهم ميناء في السند، وكان فيها معبدٌ بوذيّ لدفن رُفَاتِ بوذا وتلاميذِه. كما كان يوجد بين سكّانِها أربعةُ آلافِ عائلة عربية منذ فتَحَها المسلمون (٧١٢ م). ويحدثنا المسعودي عن دولة القنج في الهند، وكان فيها مسلمون يتمتّعون بامتيازات كبيرة، ثمّ دمّرها إندرا الثالث، واستولى على عاصمتها بعد سنة من زيارة المسعودي لها.

وقد أولى المسعودي لغاتِ شعوبِ الهند ومعتقداتهم الدينية اهتماماً بالغاً، فكان أوّلَ مؤلّف مسلم يقدّم معلومات ثمينة عن الهندوسية، وهي الديانة الرئيسة في الهند. وكان مطّلعاً على ما كتبه مَن سبقه من العرب عن تلك البلاد، مدركاً أهمية ما لم يأتوا

على ذكره، أو لم يعرفوه. ومن أولئك أبو القاسم البَلْخي مؤلِّف كتاب "عيون المسائل والجوابات"، والحسن بن موسى النوبَخْتي مؤلِّف كتاب "الآراء والديانات". ففي هذين الكتابين يتحدث المؤلفان عن مذاهب الهند وآرائهم، وعن الأسباب التي من أجلها يحرقون أنفسهم في النيران، ويقطِّعون أجسامهم بأنواع العذاب، ولكنهما لا يتعرَّضان لشيء مما ذكره المسعودي ووصفه، كما يقول.

واستدراكاً لهذا النقص عند أسلافه يروي لنا المسعودي كيف يحرق بعض الناس أنفسهم عندما يموت الملك، وكيف يحرقون جسمه وينثرون رماده في الهواء. يقول:

"والهند تعذِّب نفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الأمم. وقد تيقَّنَتْ أن ما ينالها من النعيم، في المستقبل مؤجَّلاً، لا يكون بغير ما أسلفتْه من تعذيب أنفسها في هذا الدار معجَلاً. ومنهم مَن يأتي إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسَه. فيدور في الأسواق وقد أُجِّجت له النار العظيمة، وعليها مَن قد وُكِّلَ بإيقادها. ثم يسير في الأسواق وقدّامَه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خِرَق الحرير قد مزّقها على نفسه. وحَولَه أهلُه وقرابتُه، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر وقد جُعِل عليها الكبريت والسندروس. فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق

التنبول والفُوفل. والتنبول في بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكّة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن مضغُه بدلاً من الطين. ويكون عند الصيادلة للورم وغير ذلك. وهذا إذا مُضِغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شدَّ اللِّثّة، وقوّى عمود الأسنان، وطيَّب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهَّى الطعام، وبعث على الباه، وحمَّر الأسنان حتّى تكون كأحمر ما يكون من حَبِّ الرمّان، وأحدث في النفس طرباً وأريحية، وقوّى البدن، وأثار من النكهة روائح طيِّبة خَمِرة. والهند خواصُّها وعوامُّها تستقبح مَن أسنانُه بِيضٌ، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا. فإذا طاف هذا المعذِّبُ لنفسه بالنار في الأسواق، وانتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغيِّر في مِشيته ولا متهيِّب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمراً كالتل العظيم يتناول بيده خنجراً – ويُدعى الجريء عندهم – فيضعه في لبَّته. وقد حضرتُ، ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك سنة أربع وثلاثمائة (٣٠٤ هـ)، <...> فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم. فلمّا دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقَّه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كَبِدِه

فجذب منها قطعة وهو يتكلَّم، فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ولذَّة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار.

وإذا مات الملك من ملوكهم أو قَتَلَ نفسَه، حرَّق خلْقٌ من الناس أنفسَهم لموته، يَدعُون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجري. وتفسير ذلك: المصادق لمن يموت، فيموت بموته، ويحيا بحياته" (ج١، ص ٢٢٠ - ٢٢١).

الشواطئ الأفريقية

غادر المسعودي الهند أواخر سنة ٩١٦ م. باتجاه ساحل أفريقيا الشرقية، عبر المحيط الهندي الذي كان يسمّى بحر الحبشة. وهو يتحدث عن وجود عرب بين السكان الأصليين الذين يصنعون حليَّهم من الحديد، وليس من الذهب والفضة. ويقول: إن الزنوج يحكمهم مسلمون في جزيرة بيمبا التي يسميها كامبالا، وتقع على مسافة يومين من البر، قريباً من شواطئ تنزانيا اليوم. ويولي المسعودي اهتماماً كبيراً لحياة القبائل في البر الأفريقي، فيشير إلى أن بعض القبائل تقتل ملكَها إذا كان ظالماً لا يحكم بالعدل، ثم تختار ملكاً بدلاً منه.

ويتغذى الزنوج بالموز المتوفّر بكثرة في شرق أفريقيا، وبالذُّرَة، والعسل، واللحوم. وهم لا يعرفون الخيل، فيركبون البقر، وعلى

ظهورها يحاربون ويتقاتلون، بدلاً من الإبل والخيل. وأبقارهم تجري كالخيل بسروج ولُجُم. ورأى المسعودي نوعاً من هذا البقر يبرك كما يبرك الجمل، ويسير بحمله كما تسير الجِمال...

وللصيد مكانة كبيرة في حياتهم، وخاصة صيد الفيَلة. وهي عندهم أكثرُ عدداً ممّا في الهند، ولكنها غيرُ قابلة للتدجين، أي إنها ليست حيوانات أليفة تعيش إلى جانب الإنسان، كالأبقار والأغنام والخيل والإبل...إلخ. فهم لا يستخدمونها في الحرب أو العمل، وإنما يصطادونها بطريقة خاصة، وذلك طمعاً بما لها من أنياب العاج الغالي الثمن الذي يصدّرونه إلى البلدان الأجنبية. كما أنهم يصنعون من جلود الفيلة دروعاً متينة.

وفي رحلته عبر أفريقيا يصف المسعودي الحبشة ومصر وبلاد النوبة، فيُدهشنا بدقة الملاحظة والمعرفة التفصيلية بكل ما يتطرق إليه قلمه، وما يلتفت إليه نظره. فهو يحدثنا عن أنواع معدن الزمرّد الذي يوجد في موضع يُعرَف بالخربة من الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط المصرية، ويبعد عنها مسيرة سبعة أيام. فيقول إن الزمرد الذي يُقتَلَع من هذا المكان أربعة أنواع:

النوع الأول منها يعرف بالمرِّ، وهو أجودُها وأغلاها ثمناً. وهو شديد الخضرة كثير الماء، وخضرتُه شديدة الشبهِ بخضرة السلق، وهذا اللون غير كدرٍ ولا ضارب إلى السواد.

النوع الثاني يدعى بالبحري، أي إن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد، وتُباهي في استعماله في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأَسْوِرَتِها. وهو يلي المرّ في الجودة. وتشبه خضرتُه الغضَّ من ورق الآس في أوائل الغصن وأطرافه.

والنوع الثالث يعرف بالمغربي، لأن ملوك المغرب من الإفرنج والأندلس والصقالبة والروس... يتنافسون في هذا النوع من الزمرّد كتنافس ملوك الهند والصين في النوع المعروف بالبحري.

والنوع الرابع يسمّى بالأصمّ، وهو أدنى الأنواع وأقلُّها ثمناً، لقلّة مائه وخضرته المتفاوتة الدرجات.

وأجود أنواع هذا الجوهر وأغلاها في الثمن هو أكثرُها ماءً وخضرة، وخُلُوّاً من أيّ نقاط وعروق، وأصفاها وأنقاها من السواد والصفرة وغير ذلك من الألوان.

وأهل الدراية بهذا الجوهر يعرفون أن الحيّات والأفاعي وسائر أنواع الثعابين وغيرها إذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداقها، وأن الملسوع إذا سُقيَ من الزمرد الخالص على الفور أمِن على نفسه من أن يسري السمُّ في جسده. ولا يوجد شيء من

أنواع الحيّات يقرب من معدنه وأرضه. على أن الزمرد هو أخفّ الجواهر المعدنية وزناً.

ثم يصف المسعودي شواطئ الحبشة، عندما يمرّ بمحاذاتها راكباً سفينة، فيقول إنها بلادٌ واسعة يحكمها النجاشي.

وبعد أن دار المسعودي حولَ منطقةِ القَرنِ الأفريقي، توقّف في جزيرة يسميها سوقطرة، قبالة شاطئ اليمن، ثم تابع رحلته البحرية إلى أحد الموانئ الغنية في عُمان.

اليمن

ولم يَطُلِ المقامُ بالمسعودي في العراق، فحجّ إلى الكعبة في مكّةَ المكرّمةِ وهو في طريقه إلى اليمن عبر الجزيرة العربية.

وكانت صنعاء في تلك الأيام تحت حكم سلالة بني يَعْفُر. وفيها شاهد المسعودي أطلال قصر غُمْدان الذي بناه أحدُ ملوكِ اليمن في القرن الأوّل قبل الميلاد، ثم دمّره الأحباشُ في القرن السادس الميلادي، قبل أن يطردَهم سيف بن ذي يزن بالتعاون مع شاه إيران، وقبل أن يعيد بناءه من جديد.

وبيت غُمْدان الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن هو الخامس بين البيوت المعظَّمة السبعة المتَّخَذة على أسماء الكواكب: الشمس، والقمر، والزُّهْرة، والمشتري، وزُحَل، والمرِّيخ وأورانوس. وأوّلُ

تلك البيوت: البيت الحرام، والثاني: بيت مارس (المرِّيخ) على رأس جبل بأصبهان، والثالث: بيت مندوسان بالهند، والرابع: (بيت البرامكة) النوبهار بمدينة بَلَخ من خُراسان على اسم القمر.

يقول المسعودي عن بيت غُمدان: إن "الضحّاك بناه على اسم الزُّهرة، وخربه عثمان بن عفّان رضيَ الله عنه. فهو في وقتنا هذا – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٢هـ - خراب، قد هُدِم فصار تلاً عظيماً. وقد كان الوزير علي بن عيسى بن الجراح، حين نُفيَ إلى اليمن وصار إلى صنعاء، بنى فيه سقاية وحفر فيه بئراً.

ورأيت غُمدان ردْماً وتلاً عظيماً قد انهدم بنيانُه، وصار جبلَ تراب كأنه لم يكن. وقد كان أسعد بن يَعْفُر، صاحب قلعة كحلان النازل بها وصاحب مخاليف (قِلاع) اليمن في هذا الوقت، وهو المعظَّم في اليمن، أراد أن يبني غُمدان، فأشار عليه يحيى بن حسين الحسني أن لا يتعرَّض لشيء من ذلك. إذ كان بناؤه على يدَي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثِّر في صقعٍ من هذا العالم تأثيراً عظيماً" (ج٢، ص ٢٤١).

كما أن المسعودي زار السدَّ العظيم الذي أقيم في مأرب (سدّ مأرب)، عاصمةِ مملكة سبأ، شمالَ شرقي صنعاء. ولكنَّ سيولاً قويةً كانت قد دمّرتِ السدَّ في القرن السادس الميلادي. فوصف

البساتينَ والكرومَ قائلاً إن المرءَ يستطيع أن يسيرَ فيها مدةَ ثلاثةِ أيامٍ، وفي جميع الاتجاهات، راكباً على الخيل، دون أن تفارقَه ظلالُ الأشجارِ المثمرة.

وفي طريق العودة إلى العراق وصف المسعودي أحوالَ البدوِ، وعاداتِهم، وأخلاقَهم.

الخزر والروس وجبال القوقاز

وبعد مدة أمضاها في بغداد سافر المسعودي إلى إيران المُطلّةِ على شواطئ قزوين. وهناك ركب سفينة تجارية مرّت بعدد من الجزر. وعند شواطئ أبشيرون شاهد منابعَ نفطٍ تحت الماء فظنَّها براكين.

ثم سافر إلى منطقة بحر قزوين (الذي كان العرب يسمّونه بحرَ الخَزَر) وجبالَ القوقاز لأسبابٍ أهمُّها:

١) التعرّفُ عن قرب إلى أخبار الخزر والبُلغار وإمارة كييف الروسية؛

٢) التأكدُ ممّا إذا كان بحرُ قزوين جزءاً من البحر الأسود، كما كان يعتقد العرب جازمين، أم إنهما بحران منفصلان، كما تبيّن له خلال رحلته هذه.

لقد نشأت مملكة الخزر في القرن السابع الميلادي. وكانت عاصمتها آمِل تقع على نهر يقسمها ثلاثة أقسام هو نهر الفولغا. وتقع في وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك. وكانت الحركة بين الجزيرة والبرِّ تجري عبر جسر من السفن. ومدينة آمِل يسكنها مسلمون ونصارى ويهود ووثنيون، ويحكمُها ملكٌ من اليهود الخزر يلقّب بالخاقان.

ويذكر المسعودي كيف أن الخزر، وهم من القبائل التركية، لم يكونوا يهوداً، وإنما اعتنقوا اليهودية. وهذه حقيقة تؤكِّد أن معظم يهود أوروبا الشرقية هم من أبناء أولئك الخزر الذين لا يربطهم بفلسطين أي رابط تاريخي.

يقول المسعودي إن ملكَ الخزر تَهوَّد (اعتنق الدين اليهودي) في خلافة هارون الرشيد، أي في بداية القرن التاسع. وانضمّ إلى ملك الخزر كثير من اليهود الذين جاؤوا من شتّى مناطق المسلمين والروم:

"وقد انضاف إليه خلْقٌ من اليهود وَرَدُوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم. وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا، وهو سنة ٣٣٢ هـ، وهو أرمَنوس، نقل مَن كان في مملكته من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم" (ج١، ص١٩١)، فهرب عدد كبير من اليهود من أرض الروم إلى أرضه.

ويُسمّى الملك في بلاد الخزر الخاقان. وكان الخاقان تحت سيطرة ملكٍ آخر موجود معه في دار مملكته. ولم يكن يحقُّ للخاقان الخروجُ من القصر والظهورُ أمام الناس. وإذا ما أصاب البلادَ جفافٌ، أو مُنِيَتْ بهزيمة كانوا يقتلون الخاقان، ويحلّ محلّه رجلٌ آخرُ من أبناء عشيرتِه:

"فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حَرَمُه، ولا يأمر ولا ينهى، ولا يدبِّر من أمور المملكة شيئاً. ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته ومعه في حيِّزه. فإذا أجدبت أرض الخزر، أو نابت بلدَهم نائبةٌ، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم[1]، أو فاجأهم أمر من الأمور، نفَرت[2] الخاصة والعامة إلى ملك الخزر، فقالوا له: قد تطيَّرنا[3] بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمنا به، فاقتلْه أو سلِّمْه إلينا نقتله. فربّما سلّمه إليهم فقتلوه، وربّما تولّى هو قتْلَه، وربّما رقَّ له فدافع عنه، لأنَّ قتله بلا جُرمٍ استحقّه ولا ذنْب أتاه" (ج١، ص ١٩٣).

---

(١) انهزموا في حرب مع غيرهم من الأمم.

(٢) هبَّت.

(٣) أي وجدناه علامة نحْسٍ علينا.

وكان بين السكان مجموعةٌ كبيرة من المسلمين تسمّى اللارسية، ولها نفوذٌ كبير لأن القوّةَ العسكرية الأساسية عند الملك من أبنائها. كما كان الوزير (مستشار الخاقان) مسلماً حتماً. وعقد المسلمون مع الخاقان معاهدةً تسمح لهم بحرِّيَّة العبادة وعدم الاشتراك في حروب الخزر ضد المسلمين الآخرين.

نقرأ في "مروج الذهب":

"والغالب في هذا البلد المسلمون، لأنهم جندُ الملك، وهم يُعرَفون باللارسية. وهم ناقلة[١] من نحو بلاد خُوارَزْم. وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جدبٌ ووباء فانتقلوا إلى ملك الخزر. وهم ذوو بأس وشدّة، وعليهم يعَوِّل ملك الخزر في حروبه. وأقاموا في بلده على شروط بينهم، أحدها: إظهار الدين والمساجد والأذان؛ وثانيها: أن تكون وزارة الملك فيهم، والوزير في وقتنا هذا هو أحمد بن كويه؛ وثالثها: أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملَّتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفّار. ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص، منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن[٢] والدروع والخُوَذ، ومنهم رامحة

---

(١) مهاجرون، أي انتقلوا.

(٢) الجواشن جمع جَوشَن، وهو الدرع المصنوع من حلقٍ حديدية متداخل بعضها ببعض.

أيضاً على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح. ولهم قضاة مسلمون. ورَسْمُ[1] دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة: اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم الإنجيل، وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية[2] يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية. فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام. وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع[3] من له جندٌ مرتزقة غيرُ ملك الخزر. وكل مسلم من تلك الديار يُعرَف بأسماء هؤلاء القوم "اللارسية". والروس والصقالبة[4] الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده. وفي بلاده خلقٌ من المسلين تجّار وصنّاع، غير اللارسية، فرُّوا إلى بلاده لعدله وأمنه. ولهم مسجد جامع، والمنارة (مئذنته) تشرف على قصر الملك. ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن" (ج١، ص ١٩٢).

---

(١) هنا بمعنى قانون.

(٢) أي للوثنيين الذين لا دين لهم.

(٣) جمعها أصقاع (نقول: أصقاع الأرض)، أي الإقليم أو البلد.

(٤) كانوا يومها وثنيين، ولم يعتنقوا المسيحية إلا في أواخر القرن العاشر الميلادي، أي بعد نصف قرن من الزمن الذي يتحدث عنه **المسعودي**.

وفي ختام هذه الفقرة من الكلام عن التفاهم والتسامح بين من كانوا يعيشون في بلاد الخزر يبدي المسعودي ملاحظة تدلّ على استغرابه، إذ يقول:

"فإذا اتَّفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة"، أي لا يستطيع أن يكون حاكماً عليهم.

وعلم المسعودي أنه قبل رحلته إلى منطقة القوقاز بأكثر من ٢٠ عاماً جهّز الروس حملةً مؤلّفة من ٥٠٠ مركِبٍ على كلّ منها ١٠٠ مقاتل لمحاربة المسلمين على سواحل بحر قزوين. واتفق قادةُ الحملة الروسية مع خاقان الخزر الذي كان في حرب ضد الإمارات الإسلامية فسمح لهم بمرور مراكبهم شريطةَ أن يقدّموا له في طريق عودتهم نصفَ ما يسلبونه من غنائم. فنهبوا بلاد المسلمين في أذربيجان وطبرستان والديلم، وهزموا حملةَ ملك شروان علي بن الهيثم شرّ هزيمة. ثم عادوا بعد شهورٍ محمّلين بالغنائم والأسرى، وأعطوا الخاقان نصفَ ما كسَبوه. وقد حذّر الخاقان الحملةَ الروسية من جنودِه المسلمين الذين لا يستطيع منعهم من الحرب. والحقُّ أنّهُ قام اللارسية المسلمون ومعهم النصارى بمهاجمة المحاربين الروس على ضفاف نهر الفولغا، فقتلوا أكثرهم وأغرقوا آخرين، ولم ينجُ منهم إلا حوالي ٥ آلاف شخص. ولمّا كان حاكم إمارة بلغار الفولغا والمقرَّبون

منه قد اعتنقوا الإسلام أيام الخليفة المقتدر (٩٠٨ – ٩٣٢ م) فإنهم اعترضوا طريقَ الناجين من الروس وقضوا عليهم في نهر الفولغا أيضاً. وظلّت مملكةُ الخزر تخوضُ حروباً ضاريةً ضدَّ الخلافةِ الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية حتى قضى عليها أميرُ كييف سفياتوسلاف، وذلك سنةَ ٩٦٥ ميلادية، أي بعدَ رحلةِ المسعودي إلى هذه المنطقة بحوالي ٣٠ عاماً.

ويروي المسعودي قصة حملة الروس على بلاد المسلمين في آذربيجان والمناطق المحيطة ببحر الخزر، وكيف تصدَّى مسلمو بلاد الخزر للروس في طريق العودة، فيقول:

"والروس أمم كثيرة وأنواع شتى <...> يسافرون للتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر. وجاؤوا بعد عام ٣٠٠ هـ في حوالي ٥٠٠ مركِب، في كل مركِب ١٠٠ نفس. <...> وهنالك رجال ملك الخزر بسلاحهم القوي يصدّون من يأتي من ذلك البحر. <...> فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتَّبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد، وينحدروا في نهره، ويتّصلوا ببحر الخزر،<...>، ويجعلوا لملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر" (ج١، ص ١٩٥).

فسمح لهم، ودخلوا النهر (الفولغا) وانحدروا فيه مروراً بمدينة آمل، إلى أن دخلوا بحر قزوين، وانتشرت فيه مراكبهم. ونزلت سرايا الروس على سواحل جورجيا وأذربيجان:

"فسفكت الدماء، واستباحت النسوان والوِلْدان، وغنمت الأموال، وشنّت الغارات، وأخربت، وأحرقت. فضجَّ مَن حول هذا البحر من الأمم، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوّاً يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار والصيد <... > وانتهوا إلى ساحل النفاطة (النفط) من مملكة شروان المعروفة بباكة (باكو، عاصمة أذربيجان اليوم). وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منها. وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم، فاستعدّ الناس، وركبوا في القوارب ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر. فمالت عليهم الروس، فقُتِل من المسلمين وغرق ألوف. وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر، لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس خائفون، حذرون منهم. <... >فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبِّه، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم. وملك الخزر لا مراكب له، وليس لرجاله بها عادة. < ... > وعلِم بشأنهم اللارسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر:

- خَلِّنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين، وسفكوا الدماء، وسَبَوا النساء والذراري.

فلم يمكن الملك منْعَهم. وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم. وعسكروا، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء.

فلمّا وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وقاتلوا المسلمين. وكان مع المسلمين خلقٌ من النصارى من المقيمين بمدينة آمل. وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام. ونصر الله المسلمين عليهم، وأَخَذَهم السيف بين قتيل وجريح. ونجا منهم نحو خمسة آلاف، فركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس، ثم تركوا مراكبهم وتعلّقوا بالبر. فمنهم مَن قتله أهل برطاس، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغز (البلغار) إلى المسلمين فقتلوهم. وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر (الفولغا) نحواً من ثلاثين ألفاً. ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا" (ج١، ص١٩٦ - ١٩٧).

ولا يفوت المسعودي أن يلتفت إلى الغريب من عادات الشعوب ومعتقداتهم، فيذكر أنه كان في أحد جانبَي آمل، عاصمةِ الخزر، وثنيون من الصقالبة والروس:

"يحرقون موتاهم ودوابُّ (أي ما يملك من حيوان) وآلاته والحلى. وإذا مات الرجل أُحرِقت معه امرأتُه وهي في الحياة.

وإن ماتت المرأة لم يُحرَق الرجل. وإذا مات منهم أعزب زوِّج بعد وفاته. والنساءُ يرغبن في تحريق أنفسهن، لدخولهن عند أنفسهن الجنة[1]. وهذا فعل من أفعال الهند، على حسب ما ذكرنا آنفاً، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة" (ج١، ص ١٩١ - ١٩٢)، أي إلا إذا هي رغبت بذلك.

لقد تنقّل المسعودي كثيراً في ربوع القوقاز، فزار مدينة تفليس (وهي تبيليسي عاصمة جورجيا اليوم) التي فتحها العرب المسلمون أواسط القرن السابع الميلادي. وهو يقول إن الكُرْج (الجورجيين) والأبخاز لم يتوقّفوا عن دفع الجزية للمسلمين إلا في عهد الخليفة العباسي المتوكّل، ويعود السبب في ذلك إلى الحروب الداخلية بين قادة الجند المسلمين.

كما يحدِّثنا عن مملكة اللان (ألانيا اليوم)، وكان لملكها قصور ومنتزهات خارج العاصمة يتنقّل في السكنى إليها.

وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الدولة العباسية يعتنقون دين النصرانية، وكانوا قبل ذلك جاهلية. ثم رجعوا عن النصرانية إلى

---

(١) أي كنَّ راضياتٍ بالموت حرقاً، وذلك طمعاً بالنعيم في العالم الآخر.

دين الإسلام بعد عام ٣٢٠ هـ، وطردوا من كان عندهم من الأساقفة والقسيسين الذين أرسلهم إليهم ملك الروم.

ويذكر المسعودي أنه تعيش بعد مملكة اللان أمّة يقال لها كشك: "وتفسير هذا الاسم، وهو فارسي، إلى العربية: التّيه والصَّلَف (أي التكبُّر والغرور). وذلك أن الفرس إذا كان الإنسان تائهاً (متكبِّراً) صلِفاً قالوا: كشك". وحين يصف أمّة الكشك يقول:

"وهي أمّة مطيعة، منقادة إلى (تعتنق) المجوسية. وليس فيما ذكرنا من الأمم في هذا الصقع أنقى أبشاراً (بَشَرَةً)، ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدوداً، ولا أدقّ أخصاراً، ولا أظهر أكفالاً وأردافاً، ولا أحسن شكلاً من هذه الأمّة. ونساؤهم موصوفات بلذّة الخَلوات. ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني، وغير ذلك من أنواع الديباج والذهب. وهم قريبون في البحر من بلاد طرابزندة (طرابزون التركية اليوم)، ضعفاء أمام اللان لأنهم لا يملِّكون عليهم ملكاً يجمع كلمتهم. ولو اجتمعت كلمتهم لم يقوَ عليهم اللان ولا غيرها من الأمم" (ج١، ص ٢٠٧).

ويصحح المسعودي ما كان شائعاً في عصره من معلومات تقول إن بحر الخزر (بحر قزوين) متصل بالبحر الأسود:

"وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزري يتصل ببحر مايطس، ولم أرَ فيمن دخل بحر الخزر من التجار ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس (البحر الأسود وبحر مرمرة) إلى بلاد الروس والبلغر أحداً يزعم أن بحر الخزر يتصل ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها إلا من نهر الخزر (نهر الفولغا) <...> . ورأيتُ أكثر مَن تعرّضَ لوصف البحار ممن تَقدَّم وتأخَّر يذكرون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر. ولست أدري كيف ذلك، ومن أين قالوه؟ أمِن طريق الحدْس، أم من طريق الاستدلال والقياس؟" (ج١، ص ١٣٦).

وهو يدقق معلوماته عن طريق المشاهدة والأخبار الموثوقة، فيأخذها من البحّارة وأرباب المراكب الذين يؤكدون حقائق هي "في أغلب الأمور على خلاف ما ذكرتْه الفلاسفة". ومن مصادره الموثوقة، مثلاً:

"عبد الله بن وزير، صاحب جبلة من ساحل حمص من أرض الشام، ولم يبقَ في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٢ هـ) أعلمُ منه في البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسِّط)، ولا أسنُّ (أعمر) منه، وليس فيمن يركبه من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو منقاد إلى قوله ويُقِرّ له بالبصر والحِذْق" (ج١، ص ١٣٩ - ١٤٠).

سورية وفلسطين

يصل المستعرب الروسي دميتري ميكولسكي إلى أن المسعودي أمضى خمسَ سنواتٍ في شمال سورية، ومنطقة العواصم التي سُمّيت بهذا الاسم لأنها مجموعةٌ من المدن الحصينة كالقلاع من أجل الدفاع عن الحدود الشمالية الغربية للخلافة ضدَّ أطماعِ البيزنطيين. ويقول إن المسعودي قام بأكثر من رحلة، في عشرينيات القرن العاشر، إلى سورية وفلسطين المجاورتين للعراق. وذلك أن اهتمامَه ببلاد الشام كان يعود إلى:

١) كونِها مهدَ حضاراتٍ راقية؛

٢) أن دمشقَ كانت عاصمةَ الأمويين الذين كتب عن خلفائِهم: معاويةَ، وعبدِ الملك بنِ مروان، وعمرَ بنِ عبد العزيز... صفحاتٍ ساطعةً في كتابه "مروج الذهب"؛

٣) رغبتهِ في التعرف إلى علاقات سورية مع البيزنطيين قبل الإسلام وبعد الفتوحات.

فجاء أول مرة إلى سورية عام ٩٢١ م، وأقام في حلب مدة قصيرة، فتعرّف إلى علمائها، واطّلع على آثار هذه المدينة المأهولة بالسكان قبل ثلاثة آلاف عام من مجيئه إليها.

ومنها سافر إلى مدينة أنطاكية، فزار معابدَها المسيحية: كنيسة القديسة مريم، وكنيسة القديسة بربارا، وكنيسة القديس بولص، والآثارَ الإغريقية.

وبعدها توجّه إلى طرسوس، مَسْقِطِ رأس الرسول بولص، حسبما كان شائعاً بين المسيحيين. وكان في طرسوس قلعةٌ ذاتُ أسوارٍ مزدوِجة، منيعةٍ في تلك الأيام. ثم انتقل إلى أضنة، آخرِ مَعْقِلٍ سوري حصين على الحدود مع بيزنطة، فالتقى بحاكمها العسكري، الدبلوماسي المعروف، أَبي عُمَير الأزدي الذي كان يعرف البيزنطيين جيداً من خلال زياراتِه الدبلوماسية الكثيرة لعاصمتِهم القسطنطينية، وحروبِه معهم، وإتقانِه اللغةَ الإغريقية بطلاقة. وهناك روى له الأزدي كثيراً عن عادات البيزنطيين، وتقسيماتهم الإدارية.

واستقى المسعودي قسماً من معلوماته عن البيزنطيين من المصادر العربية الإسلامية والرجال الثِقاة، مثل البحّار الشهير ليون تريبوليتيانين، أي (الأسد الطرابلسي) الذي كان بيزنطياً، ثم اعتنق الإسلام، وخاض ضد قومه معاركَ طاحنة، وشنّ عليهم هجمة شهيرة عام ٩٠٤ م.، فأسر منهم كثيرين.

كما اعتمد المسعودي على أخبار مسلم بن أبي مسلم الجرمي الذي أمضى وقتاً في الأسر البيزنطي حتى افتُديَ عام ٨٤٥ م.

ولم يكتفِ الجرمي بالحديث عن الروم البيزنطيين، بل وتطرّق أيضاً إلى جيرانهم البلغار، والصقالبة.

وعاد المسعودي إلى ما كتبه الرهبان المسيحيون بالعربية، من أمثال النسطوري يعقوب بن زكريا، واليعقوبي أبي زكريا دنحا، والعالم الماروني قيس الماروني... وهو يؤكد أن البحّارةَ العرب كانوا يهاجمون السواحلَ البيزنطية، ويقومون بشنّ غارات جريئة على سفن الروم في عرض البحر، فيستولون على ما فيها من غنائمَ، وأرزاقٍ ثمينة.

وعندما كان المسعودي مقيماً في مصر الإخشيدية، عام ٩٤٦ م.، سمع بأن العالِم البيزنطي المعروف، يوحنّا المتصوّف، جاء إلى سورية لمقابلة والي دمشق، من أجل عقد هدنةٍ واتفاقيةٍ لتبادل الأسرى. فما كان منه إلا أن أسرع بالسفر من الفسطاط (القاهرة حالياً) إلى دمشق، ليسمع من يوحنّا المتصوّف نفسِه أخبار بيزنطة، وصراع حكامها على السلطة. وقد كتب المسعودي عن هذا اللقاء وما دار فيه على صفحات كتابه الأخير "التنبيه والإشراف".

ويمضي هذا الرحالة إلى فلسطين. فيمرّ بمدينة طبريّا التي كانت تقع على شاطئ بحيرة طبريّا. وكان فيها يومها بقايا قصر يوناني قديم، ومعبد وثني تحوّل مع الزمن إلى كنيسة مسيحية.

وذهب المسعودي إلى مدينة الناصرة التي عاش فيها السيّد المسيح حتى الثلاثين من عمره، وزار كنيستَها، وبيتَ لحم مَسقِطَ رأسِ السيّد المسيح.

ومن الناصرة توجّه إلى نابلس، فالرملة.

وفي القدس زار الآثارَ المسيحية والإسلامية الموجودةَ بكثرة.

وفي عام ٩٢٧ م. قصد المسعودي مدينة حَرّان الواقعة على الحدود السورية العراقية. وكانت حَرّان في قديم الزمان عاصمةَ طائفةِ الصابئة التي تتألف معتقداتها من عبادات قديمة اختلطت فيما بعد بطقوس يونانية جاءت مع الإسكندر المقدوني (٣٥٦ – ٣٢٣ قبل الميلاد) الذي حارب الفرس. ويقدّس الصابئةُ بعضَ الفلاسفة مثل هرمز الإغريقي، والموسيقي الأسطوري أورفيوس، ويعدّونهم أنبياء. ويرون أن العالم مِن صُنْعِ خالقٍ حكيم يمكن التقربُ إليه عن طريق أرواح نورانية، لا أجسادَ لها. وقد أقام الصابئة معابدَ للكواكب، وتعمّقوا في علم الفلك.

ومن حرّان تابع المسعودي طريقه إلى دمشق، فمرّ بتدمر التي نافست روما في القرن الثالث الميلادي. ولمّا قامت زنوبيا، ملكة تدمر، بتوحيد سوريا ومصر، حاربها الإمبراطور الروماني أورليان، وخرّب مملكتها، وأسرها، فماتت وهي أسيرة في روما.

الجامع الأموي

وفي دمشق زار المسعودي الجامع الأموي الذي أحكم بناءه الخليفةُ الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥ م.)، مكان كنيسة يوحنّا المعمدان التي لم يبقَ منها إلا جدرانُها ذاتُ الأحجار الضخمة. وتحوّلت أبراج الكنيسة إلى مآذن، كما يخبرنا المسعودي. وقد كانت الكنيسة نفسها أقيمت مكان معبد شيّده الرومان للإله الأسطوري جوبيتَر (المشتري)، فوق معبد وثني، كان قائماً قبل ضمّ سورية إلى الإمبراطورية الرومانية.

وعن أصل مسجد دمشق يقول المسعودي إنه كان:

"قبل ظهور النصرانية هيكلاً عظيماً، فيه التماثيلُ والأصنام على رأس منارته منصوبة. وقد كان على اسم المشتري طالَعَ سعد، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة. وظهر الإسلام فجُعِل مسجداً، وأحكم بناءه الوليد بن عبد الملك. والصوامع منه لم تُغَيَّر، وهي منائر الأذان حتى هذا الوقت" (ج٢، ص٢٥٩).

ويذكر المسعودي أن عبد الملك بن مروان اقتلع من كنيسة مريم في أنطاكية أعمدة: "عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حُمِلت في البحر إلى ساحل دمشق، وبقي الأكثر من هذه الكنيسة إلى هذا الوقت". ويصف كنيسة مريم بأن "بنيانها من إحدى عجائب العالم في التشييد والرفعة" (ج٢، ص ٢٠٢).

هيكل جيرون

وفي سنة ٣٣٢هـ زار المسعودي هيكل جيرون الذي يصفه بأنه هيكلٌ عظيم البنيان في مدينة دمشق. وبانيه جيرون بن سعد العادي (أي ابن عاد)، وهو الذي نَقَلَ إليه أعمدة الرخام والمرمر، وشيَّد بنيانه، وسمّاه إرَم ذات العماد المذكورة في القرآن. وكان هذا الموضع يوم زاره المسعودي سوقاً من أسواق دمشق عند باب المسجد الجامع، يُعرَف بـ جيرون. وجيرون بنيان عظيم، كان قصرَ الملك، وعليه أبواب من نحاس عجيبة، بعضُها على ما كانت عليه، وبعضها من مسجد الجامع.

البريص

"وقد كان بدمشق أيضاً بناء عجيب يقال له البريص، وهو مبقّى (باقٍ) إلى هذا الوقت في وسطها. وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان، وقد ذكرته الشعراء في مدحها لملوك غسّان من مأرِب وغيرهم" (ج٢، ص ٢٦٠).

بَعْلَبَكّ

وختم المسعودي رحلته إلى سورية بزيارة مدينة بَعْلَبَكّ الشهيرة بمعابدها الرومانية. وكان العرب المسلمون يعتقدون بأن

الجنّ هم الذين بنوا هذه المعابد بأمر من النبي سليمان. غير أن المسعودي يؤكّد أنها من صُنع يدِ الإنسان. وقد أقيمت تكريماً للإله بعل، أحدِ آلهةِ الساميين في فينيقيا وسورية وفلسطين:

"والهياكل العظيمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة، مثل بيت بعل الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ بقوله: "أَتَدْعون بعْلاً وتَذَرون أحسن الخالقين؟". وهو بمدينة بَعْلَبَكّ من أعمال دمشق من كورة سنير. وقد كانت اليونانية (الأمة اليونانية) اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير فاتَّخذته موضعاً للأصنام، وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتّى حَفْرُ مثلِه في الخشب مع علوِّ سمكهما وعِظَمِ أحجارِهما، وطول أساطينهما، ووسْع فتحِهما، وعجيب بنيانهما" (ج٢، ص٢٥٨).

هيكل الديماس

"وهيكل أنطاكية يعرَف بالديماس، على يمين مسجدها الجامع، مبنيٌّ بالآجرِّ العادي والحجر، عظيم البنيان. وفي كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه ومن أعاليه في بعض الأهِلَّة الصيفية. وقد ذُكِر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية، وأنه بيتُ نارٍ لها" ــ أي هيكل مجوسيّ.

العودة إلى الوطن

صحيح أن الأوضاع السياسية المضطربة في العراق أيام المسعودي، ولا سيَّما في العقود الأخيرة من عمره، لم تكن تشجِّع على البقاء فيه. والمسعودي يعود غيرَ مرّة للشكوى من الدهر والتعبير عمّا في نفسه من ألمٍ على وطنه الذي ألقت به الأسفار والأقدار بعيداً عنه:

"وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام. ويعزُّ عليَّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المِصر (البلد) الذي عن بقعته فُصِلنا، وفي قاعته تجمَّعنا. لكنَّه الزمن الذي من شيمته التشتيتُ، والدهر الذي من شروطه الإبانة" (ج٢، ص ٧١).

ولكنَّ ذلك في نظرنا ليس السبب الوحيد، ولا حتّى السبب الرئيس الذي جعل من المسعودي المثقَّفِ رحّالةً وجغرافياً ومؤرِّخاً كبيرَ الأهمية. فقد انطلق يجوب العالم ويسجِّل في كتبه كثيراً ممّا لا غِنى لنا عن معرفته حتى اليوم. ولم يكن وراء أسفار المسعودي وكثرةِ ترحاله في بلدان الدنيا من سبب يتقدَّم على فضولِه العلمي النزيه، وحبِّه العميق للمعرفة، وتطلّعه إلى الاكتشاف. غير أن تلك الأسباب لم تكن تزيده إلا تعلقاً بوطنه، وحنيناً إلى مَن في أرضه من أهل وأصحاب وأصدقاء. فهو القـــائل:

"وأواسط الأقاليم الإقليم الذي وُلِدْنا به، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه، وساحقت مسافاتِنا عنه، وولَّدت في قلوبنا الحنين إليه، إذ كان وطننا ومَسقِطَنا، وهو إقليم بابل"(ج٢، ص ٧٠).

كما يعود مرة أخرى ليعبِّر عن هذا الشعور بما يورده أيضاً في كتابه "مروج الذهب" منسوباً إلى الحكماء والمشاهير، فيقول: "إن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينَه إلى إخوانه، وشوقَه إلى أوطانه... وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقِط رأسها توّاقة" (ج٢، ص ٦٩ - ٧٠).

ولمّا يجد أن ما يقوله لا يشفي غليلَه، نراه يقتبس أقوال آخرين قدّروا قيمة الأوطان، أو ذاقوا مرارة الغربة:

"وقال ابن الزبير: ليس الناس بشيء من أقسامهم[(١)] أقنعَ منهم بأوطانهم.

وقال بعض حكماء العرب: عمَّر الله البلدان بحب الأوطان.

وقالت الهند: حُرمة بلدك عليك كحرمة والديك، لأن غِذاءك منهما، وغِذاءهما منه.

وقال بَقراط: يداوَى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلَّع إلى هوائها، وتنزع إلى غذائها.

---

(١) أي مما قسمه الله لهم، مما وهبهم الله ومنحتهم الطبيعة.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها.

وقال جالينوس(١): يتروَّح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبَّة ببلل الأرض" (ج٢، ص ٧٢).

وهكذا، بانتهاء هذه الرحلةِ التي استمرت أكثرَ من عامين، يعود المسعودي إلى بغداد، فيُمضي فيها بضعةَ أشهر، ثمّ يتوجّه إلى البَصرة التي بناها المسلمون على شطّ العرب، عند ملتقى دِجلة والفرات. وكانت البَصرة أحدَ أبرزِ مراكزِ الثقافة العربية أيامَ العباسيين. ففيها وُلِد الشاعران الكبيران بشار بن بُرْد وأبو نُوَاس، والكاتبان الشهيران الجاحظ وابن المقفّع... وفيها قامت ثورة الزنج (٨٦٩ – ٨٨٣ م) بقيادة محمد علي البرقعي الذي أعلن نفسه خليفة، واستولى على البصرة ومدينة الأهواز. وقام بهذه الثورة عشراتُ الآلافِ من العبيد الذين كانوا يعملون بتجفيف المستنقعات في ظروف قاسية. غير أن ما قام به الثوار فيما بعد، من سلب ونهب، جعل سكان هذه المناطق، والبدو، والفلاحين يبتعدون عنهم، بعد أن كانوا يؤيّدونهم في بداية الثورة. ويروي المسعودي في "مروج الذهب" تفاصيلَ كثيرة ورهيبة عن ثورة الزنج. فقد جهّز الخليفة المعتمد من أجل سحقها جيشاً من

---

(١) بقراط وأفلاطون وجالينوس من أكبر علماء اليونان وفلاسفتها القدماء.

٥٠ ألف مقاتل يقوده أخوه الموفّق. وسرعان ما استولى الموفّق على البصرة والأهواز، وقضى على التمرّد بكل قسوة، على الرغم من المقاومة الضارية التي أبداها الثوّار. واختبأ من نجا من الثوّار في الآبار، لا يخرجون منها إلا ليلاً للبحث عن الطعام، فيأكلون القططَ، والكلابَ، والفئران. ولمَّا لم يبقَ لهم ما يأكلونه، راحوا يأكلون جثثَ البشرِ أيضاً.

وفي مدينة البصرة التقى المسعودي باللغوي الشهير الجمحي، وبالتاجر والرحّالة والكاتب أبي زيد السيرافي الذي اعتمد المسعودي كثيراً على كتابه وشهاداتِ آخرين، فكتب عن الصين التي لم يسافر إليها، وعن سكانها، وعاداتهم، وعدل حكّامهم، ووصف الصينيين بأنهم أكثر الناس تفنّناً على وجه الأرض.

وبعد ثماني سنوات (٩٢٥ م) سافر المسعودي إلى شمال العراق، ليقيم في تكريت والموصل، حيث توجد طائفة اليعقوبيين المسيحيين منذ القرن الرابع الميلادي. وهناك تجادل المسعودي مع أحد علماء هذه الطائفة، وهو أبو زكريا دنحا النصراني في كنيسة الثالوث الخضراء التي كانت آثارُها باقيةً حتى ذلك الحين إلى الجنوب من تكريت. وفي الموصل شاهد المسعودي الآثار القديمة، والتقى بأحد أكبر علماء زمانه، جعفر بن حمدان الموصلّي، واشتغل في مكتبته.

الاستقرار في مصر

يصف المسعودي مشاركةَ المصريين جميعاً وحكّامهم الإخشيديين أيضاً في احتفالات عيد الغطّاس المسيحي (الاستحمام في نهر النيل) في الفسطاط. ففي الشهر الأول من سنة ٣٣٠هـ. حضر المسعودي شخصياً الاحتفال بهذا العيد، وشاهد مئات آلاف من المصريين من المسلمين والنصارى محتشدين في الزوارق والدُّور القريبة من النيل وعلى ضفافه، وهم يحملون ما أمكنهم حَمْلُه "من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف. وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سروراً، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمانٌ من المرض، ومبرِئ للداء" (ج١، ص ٣٥٩).

ويعود واحد من أهم أسباب استقرار المسعودي أواخرَ حياته في مصر إلى أن سلطةَ الخليفة العباسي في بغداد كانت ضعيفةً خلال تلك السنوات. فقد كان البويهيون الإيرانيون يسيطرون على مقاليد الأمور في عاصمة الخلافة العباسية. وهم مَن خلعَ الخليفة المستكفي عن العرش بعد أن سَمَلوا عينيه ونصّبوا مكانَه عباّسياً آخر. ولمّا كان المسعودي من أنصار العبّاسيين فإنه فضّل عدمَ العودة إلى بغداد التي كثيراً ما راح يكتب عنها بلوعةٍ واشتياق.

وهكذا استقرّ به المَطافُ في مصر التي يقول عنها:

"وكانت مصر، فيما يذكر أهلُ الخِبرة، أكثر البلاد جِناناً. وذلك أن جِنانها كانت متصلة بحافّتَي النيل من أوّله إلى آخره، من حدّ أسوان إلى الرشيد. وكان الماء إذا بلغ في زيادته تسعة أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيُّوم وخليج سردوس وخليج سخا. وكان الذي حفر خليج سردوس لـــ فِرعون عدوِّ اللّه هامان. فلمّا ابتدأ في حفره أتاه أهل القرى يسألونه أن يُجري الخليج إلى تحت قراهم ويُعطوه على ذلك ما أراد من المال. وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة، فحمل تلك الأموال إلى فِرعون. فلمّا وضعها بين يديه سأله عنها فأخبره بما فعل. فقال فِرعون:

- إنه ينبغي للسيِّد أن يعطف على عبيده، ويُفيضَ عليهم معروفَه، ولا يرغب فيما في أيديهم. ونحن أحقُّ مَن فعل هذا بعبيده، فارددْ على أهل كل قرية ما أخذتَه منهم.

ففعل ذلك هامان وردَّ على أهل كل قرية ما أخذ منهم" (ج١، ص ٣٦٠-٣٦١).

وقد أكثر المسعودي من الترحال في مصر فوصل إلى أسوان على الحدود بين مصر وبلاد النوبة المسيحية. وفي الفسطاط

أنهى المسعودي كتابَه الضخم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" (٩٤٦ م.) وآخرَ مؤلّفاتِه "كتاب التنبيه والإشراف" (٩٥٦ م.) ثم توفّيَ بعد أشهرٍ قليلة مخلّفاً ما لا يقلُّ عن ٣٠ كتاباً في كثير من علوم عصرِه. وللأسف، فقد ضاع أكثر مؤلفات المسعودي، ولم يصل إلينا منها إلا قليل، كما ذكرنا في الصفحات السابقة.

* * *

الفصل الثالث
مختارات من "مروج الذهب"

الأهــرام

اطّلع المسعودي في مصر على آثارِ المعابد الفرعونية، ووصف الأهرامَ بأنها مُعْجِزةُ فنٍّ العمارة. ولكنه كان يظنّ أنها ليست إلا معبداً هائلَ الحجم. وهو يُكثِر من الحديث عمّا رآه من المعالم والآثار والشواهد، وعن المنارة الشهيرة في مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر المقدوني (٣٣٢ ق. م). كما يتحدث عن أهميةِ نهرِ النيل للزراعة، وعن القنواتِ التي تنقل مياهَه إلى أراضي الفلاحين، وعن اتّساعِه الذي يجعل المصريين يسمّونه بحراً.

ويروي المسعودي قصة عن عجيب أخبار مصر يقول فيها إن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عيّن أخاه عبد العزيز والياً على مصر. فجاء رجل إلى عبد العزيز وأخبره عن وجود قبّة فيها كنز عظيم. ولمّا سأله عبد العزيز بن مروان عن البرهان، قال:

" - هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحَفْر. ثم ينتهي بنا الحفر إلى قلع باب من النحاس تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من الذهب عيناه ياقوتتان تساويان ملْك الدنيا، وجناحاه مضرَّجان بالياقوت والزمرُّد، بَرَاثنُه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود.

فأمر له عبد العزيز بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال ويقوم بذلك العمل. وكان هناك تلٌّ عظيم حفروا فيه حفرة عظيمة فانكشف الرخام والمرمر. وزاد عبد العزيز بدفع الأموال وعدد الرجال فانتهى الحفر إلى ظهور رأس الديك الذي انبعث منه لمعان عظيم كالبرق الخاطف لِما في عينيه من الياقوت وشدة نوره ولمعان ضيائه. ثم بانت قوائمه، وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار والرخام، وقناطر مقنطرة، وطاقات على أبواب معقودة، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب، وأَجْرِبَة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وشُبِكت، ورُبِط ذلك بأعمدة الذهب.

فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على المكان، ونظر إلى ما ظهر. وأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة مصنوعة من نحاس تنتهي إلى هنالك. فلمّا استقرّت قدمه على الدرجة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديّان عن يمين الدرجة وشمالها

فالتفَّا على الرجل، وسرعان ما قطعاه قِطَعاً تساقطت إلى الأسفل. فلمّا استقر جسمه على بعض الدرج اهتزّ العمود، وصَفر الديك تصفيراً عجيباً سمعه مَن كان بعيداً. وحرّك الديك جناحَيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة.

ويفسِّر المسعودي هذه الآلة بأنها كانت مصنوعة على لوالب تجعلها تتحرّك إذا ما وقع على بعض تلك الدرج أو لامسها شيء. وعند ذلك يسقط الرجال إلى أسفل تلك الحفرة. وكان عدد من يحفر ويعمل وينقل التراب ويُبصِر ويتحرّك ويأمر وينهى نحو ألف رجل فهلَكوا جميعاً.

وخاف عبد العزيز، فقال:

- هذا ردمٌ عجيب الأمر، ممنوع النَّيل، نعوذ بالله منه!

وأمر جماعة من الناس، فكان الموضع قبراً لهم" (ج١، ص ٣٨).

ويتحدث المسعودي عن كتابٍ بلغةٍ قديمة وقع في أيدي جماعة ممن يبحثون عن الدفائن والكنوز وآثار الملوك والأمم السالفة في بطن أرض مصر. ويصف ذلك الكتاب موضعاً على بعد أمتار قليلة من بعض الأهرام وفيه كنز عجيب:

" وأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك، فأذِنَ لهم في حفره، وسمح لهم باستعمال الحيلة في إخراجه. فحفروا حَفْراً عظيماً إلى

أن انتهوا إلى أقباء وحجارة مجوَّفة في صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب، وقد طُليَت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتَفرُّق الأجزاء. والصور مختلفة، منها صوَر شيوخ وشبّان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروز والزَّبَرْجَد، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة. فكسروا بعض تلك التماثيل، فوجدوا في أجوافها رمماً بالية، وأجساماً فانية، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية المصنوعة من المرمر والرخام وفيها نوع من الطلاء الذي قد طُليَ منه ذلك الميت الموضوع في تمثال الخشب. وما بقيَ من الطلاء متروك في ذلك الإناء. والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها. ولمّا وضعوا منه على النار فاحت روائح طيِّبة مختلفة ليست موجودة في أي نوع من الطيب. وكل تمثال من الخشب على صورة مَن فيه من الناس على اختلاف سنِّهم، ومقدارِ أعمارهم، وتباين صوَرهم. وبإزاء كل تمثال من هذه التماثيل تمثال من الحجر المرمر، أو من الرخام الأخضر، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصوَر، وعليها أنواع من الكتابات لم يستطع فهمها أحد من أهل المِلل.

وزعم قوم من ذوي الدراية منهم أن عمر تلك الكتابة في أرض مصر أربعة آلاف عام. وفيما ذكرناه دليل على أن هؤلاء

ليسوا بيهود ولا نصارى، ولم يؤدِّهم الحفرُ إلا إلى ما ذكرنا من هذه التماثيل، وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة (٣٢٨هـ).

وقد كان لمن سَلَفَ وخَلَفَ من وُلاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٢هـ)، أخبار عجيبة فيما استُخرِج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر، وما أصيبَ في القبور من المطالب والخزائن". (ج١، ص ٣٨٤).

ويروي المسعودي قصة أخرى عن قبطي مصري معمِّر[1] يتحدث فيها عن بناء الأهرام، فيقول:

"وقد كان أحمد بن طولون بمصر بَلَغَه في سنة نَيِّف وستِّين ومائتين (بعد سنة ٢٦٠ هـ) أن رجلاً بأعالي بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة (١٣٠سنة) من الأقباط، ممّن يُشار إليه بالعلم منذ صباه، والنظر والإشراف على الآراء والنِّحَل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل، وأنه علاّمة بمصر وأرضها من برِّها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها، وأنه ممن سافر في الأرض، وتوسَّط الممالك، وشاهد الأمم، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها.

---

(١) والمؤسف أن شخصية هذا الرجل تظل مجهولة، حتى إن المسعودي لا يخبرنا بشيء عن اسمه.

فبعث أحمد بن طولون برجل من قُوَّاده مع أصحابه فحمله في النيل إليه مكرَّماً<..> . وأحضر له من حضَرَه من أهل الدراية، وصرف همَّتَه عليه، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة يسمع كلامه وإيراداته وجواباته فيما يسأل عنه" (ج١، ص ٣٦٣).

"وأقام عند ابن طولون نحوَ سنة فأجازه وأعطاه، فأبى قبول شيء من ذلك. فردَّه إلى بلده مُكَرَّماً... وله مصنَّفات تدلُّ على كلامه (ج١، ص ٣٧١).

"وسُئل هذا القبطيُّ عن بناء الأهرام، فقال:

" - إنها قبور الملوك. وكان الملك منهم إذا مات وُضِع في حوض حجارة، يسمَّى بمصر والشام الجرن، وأُطبِق عليه. ثم يُبنى من الهرم على قدْر ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يُقَنْطَر عليه البنيان والأقباء. ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ويُجعَل باب الهرم تحت الهرم، ثم يُحفَر له طريق في الأرض بعقد أزج (بنَفَقٍ من حجر) فيكون طول الأزج (النفق) تحت الأرض مائة زراع وأكثر. ولكل هرم من هذه الأهرام بابٌ يُدخَل منه، على ما وصفْتُ.

فقيل له:

- فكيف بُنِيَتْ هذه الأهرام المُمَلَّسة؟ وعلى أيِّ شيء كانوا يصعدون ويبنون؟ وعلى أيِّ شيء كانوا يحملون هذه الحجارة

العظيمة التي لا يَقدِر أهل زماننا هذا على أن يحرِّكوا الحجر الواحد إلا بجهدٍ إن قدِروا؟

فقـــال:

- كان القوم يبنون الهرم مُدَرَّجاً ذا مراقٍ كالدَّرَج، فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت حياتهم. وكانوا مع هذا لهم صَبْرٌ وقوة وطاعة لملوكهم.

فقيل له:

- ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي[(١)] لا تُقرأ؟

فقال:

- دَثَرَ الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم (كتابتُهم). وتداولَ أرضَ مصر الأمم فغلب على أهلها القلم الرومي، وأشكال الحروف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفِها إيّاه، وخَلطِها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولَّدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأوّل، فذهبت عنهم كتابة آبائهم" (ج١، ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

---

(١) "البرابي، واحدُها بَرْبا، ورُسِمت فيها علومها (علوم قدماء المصريين) من الصور والتماثيل والكتابة، وجعلت بنيانها نوعَين: طيناً وحجراً" (ج١، ص ٣٧٦).

ويحدِّثنا المسعودي عن مشاهدته الأهرام وما عليها من كتابة فيقـــول:

"والأهرام، وطولُها عظيم وبنيانُها عجيب، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة والممالك الداثرة، لا يُدرَى ما تلك الكتابة ولا ما المُراد بها. وقد قال مَن عُنِيَ بتقدير ذَرْعها إن مقدار ارتفاعها نحوٌ من أربعمائة ذراع أو أكثر، وكلَّما علا به دَقَّ ذلك. والعرض نحو ما وصفنا، عليها من الرسوم ما ذكرنا. وإن ذلك علومٌ وخواصّ وسحرٌ وأسرار للطبيعة. وإن من تلك الكتابة مكتوب:

"إنّا بنيناها، فمَن يدَّعي موازنتنا في المُلْك وبلوغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهْدِمْها، ولْيُزِلْ رسمَها. فإن الهدم أيسرُ من البناء، والتفريق أيسرُ من التأليف". وقد ذُكِر أن بعض ملوك الإسلام شرع في هدم بعضها فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفي بقلعها، وهي من الحجر والرخام". ويضيف أنه يختصر هذه الأخبار لأنه ذكر في كتابه "القضايا والتجارب": "سائر ما شاهدناه حسّاً في مطافاتنا الأرضَ والممالكَ، وما نُميَ إلينا خبراً من الخواصّ وأسرار الطبيعة من الحيوان والنبات والجماد في عجائب البلدان والآثار والبقاع" (ج١، ص ٣٧٧).

منارة الإسكندرية

يروي المسعودي ما كان شائعاً ومتداوَلاً بين الناس من افتراضاتٍ وأساطيرَ بخصوص بناء مدينة الإسكندرية. ويقول، بناء على تلك المعلومات المتناقضة، إن الإسكندرية كانت أيام الإسكندر المقدوني تضيء في الليل بغير مصباح، وذلك لشدَّة بياض ما فيها من الرخام والمرمر. وكانت القناطر المسقوفة تملأ أسواق هذه المدينة وشوارعها وأزقَّتها، فلا يصيب أهلَها شيءٌ من المطر. كما كانت تحيط بها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الألوان، بينها خنادقُ، وبين كل خندق وسور مسافة. وكانت تُعلَّق على المدينة أحياناً قِطعٌ كبيرة من الحرير الأخضر لتخفيف شدَّة بياض الرخام الذي يخطف أبصار الناس.

ولعلّ المسعودي كان أمْيَلَ إلى أن الإسكندر هو مَن بناها، ولهذه الغاية جلب إليها الرخام والمرمر والأحجار من جزيرة صقلية، وأفريقيا، وجزيرة كريت، وجزيرة رودس المقابلة للإسكندرية والتي يقول عنها إنها:

"على بعد ليلة منها في البحر، وهي أوّل بلاد الإفرنجة. وهذه الجزيرة في وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٢هـ) دارُ صناعة الروم، وبها تُنشأ المراكب البحرية، وفيها خَلْقٌ كثير من الروم، ومراكبُهم تطرق بلادَ الإسكندرية وغيرَها من بلاد مصر فتُغِير وتأسر وتسبي" (ج١، ص ٣٨٦).

وكان للمنارة العجيبة في الإسكندرية أهمية عسكرية كبيرة جعلتها هدفاً دائماً للفرنجة والروم يتمنّون تدميره. إذ يقول المسعودي إن مَن بناها:

"جعل في أعلاها تماثيلَ من النحاس وغيره، وفيها تمثال قد أشار بسَبَّابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك. وإذا علت في الفلك فإصبعُه مشيرة نحوها، فإذا انخفضَتِ انخفضَتْ يدُه سُفلاً، يدور معها حيث دارت. ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدوُّ منه على نحو ليلة. فإذا دنا وجاز أن يُرى بالبصر لقرب المسافة سُمِع لذلك التمثال صوتٌ هائل يُسمَع من ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدوَّ قد دنا منهم، فيرمقونه بأبصارهم. ومنها تمثال[1] كلَّما مضى من الليل والنهار ساعةٌ سمعوا له صوتاً بخلاف ما صَوَّتَ في الساعة التي قبلها، وصوتُه مُطرِب" (ج١، ص ٣٩٠).

وإذا ما صحّت حكاية الحيلة التي يُقال إن ملكَ الروم دبَّرها لهدم هذه المنارة، فلا شكَّ بأن خطرها العسكريَّ على الأعداء هو ما دفعه إلى تدبير تلك الحيلة. على أن المسعودي يسرد الحكاية في آخر صفحات الجزء الأوّل من "مروج الذهب"،

---

(١) أي إن فيه ما يشبه الساعة تصدر عنها موسيقى.

فيقول إنّ ملك الروم في عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان أرسل خادماً من خواصِّ خَدَمِه ذا رأي ودهاء سرّاً. فجاء الخادم إلى بعض الثغور يطلب الأمان ومعه جماعة. ودخل على الوليد فأخبره أنه من خواصِّ الملك، وأن الملك أراد قتله لوشاية وشكوك بَلَغتْه عنه لم يكن لها أصل، وأنه هرب منه ويريد اعتناق الإسلام. فأسلم على يدَي الوليد، وتقرَّب من قلبه، وأهداه كنوزاً ودفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من بلاد الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن. فلمَّا رأى الوليد تلك الأموال والجواهر شَرِهَت نفسُه، واستحكم طمعُه. فقال له الخادم:

- يا أمير المؤمنين، توجد هنا أموال وجواهر ودفائن للملوك.

فسأله الوليد عن الخبر، فقال:

- تحت منارة الإسكندرية أموال الأرض. وذلك أن الإسكندر استولى على الأموال والجواهر التي كانت لـــ شدّاد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام، فبنى لها الآزاج (الأنفاق) تحت الأرض، وقَنْطَرَ لها الأقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الكنـــوز والجواهر، وبنى فوق ذلك هذه المنـــارة. وكان طولها في الهواء (ارتفاعها) ألفَ ذِراع، والمـــرآة في أعلاها[1]،

---

(١) هي مرآة مقعَّرة تحرق أيَّ مركب توجَّه إليه، وتقرِّب رؤية البعيد.

والدبادبة[1] جلوس حولها، فإذا رأوا العدوَّ في البحر نادوا من كان قريباً منهم ونصبوا ونشروا أعلاماً يراها من كان بعيداً منهم فيحذِّر الناس ويُنذِر البلد، فلا يكون للعدوِّ عليهم سبيل.

فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأُناس من ثِقاته وخواصّه فهدم نصف المنارة من أعلاها، وأُزيلت المرآة.

فضجَّ الناس من أهل الإسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها. ولَمّا علم الخادم انتشار الخبر وأنه سيصل إلى الوليد، وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب في الليل في مركب كان قد أعدَّه واتَّفق مع قومٍ على ذلك، فتمَّت حيلتُه، وبقيت المنارة على ما ذكرنا إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢هـ.

ومن يدخل المنارة يتيه فيها إلا أن يكون عارفاً بالدخول والخروج فيها، وذلك لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها. وقد ذُكِر أن المغاربة حين جاؤوا في خلافة المقتدِر في جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة فتاهوا فيها، وفيها مهاوٍ عميقة ومخارق إلى البحر فتهوَّروا بدوابِّهم وفُقِد منهم عدد كثير، وعُلِم بهم بعد ذلك.

وفيها مسجد في هذا الوقت يرابط فيه في الصيف متطوِّعةُ المصريين وغيرهم.

---

(١) الدَّبادِبة هم مَن يقرعون الدبادِب، وهذه آلات خشبية تصدِر أصواتاً عالية.

قناة بين البحرين: الأحمر والمتوسِّط

- قبل الإســـلام :

لقد جرت منذ قديم الزمان محاولات لشقِّ قناة مائية تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسّط. غير أنه لم يُكتَب النجاح لأيٍّ من تلك المحاولات إلى أن تمكَّن الإنكليز في أواخر القرن التاسع عشر(١٨٦٩) من شق ما يُعَرف اليوم بقناة السويس. إذ سبق أن حاول بعض ملوك الروم في القديم حفر قناة بين بحر القَلْزَم (البحر الأحمر) وبحر الروم (البحر الأبيض المتوسِّط) فلم يستطيعوا، ومنعهم من ذلك ارتفاع القَلْزَم وانخفاض بحر الروم. والموضع الذي تمَّ حفْره بالقرب من بحر القلزم يُعرَف بذنَب التمساح (هو اليوم بحيرة التمساح في حوض قناة السويس) على بعد ميل من مدينة القلزم. وعليه قنطرة (جسرٌ) عظيمة يسلكه من يريد الحجَّ من مصر. كذلك مدَّوا خليجاً من هذا البحر إلى موضع هو ضيعة تُعرَف اليوم (سنة ٣٣٢ هـ) باسم الهامة من أرض مصر، فلم يستطيعوا الوصل بين بحر الروم وبحر القلزم.

وحفروا خليجاً آخر بعد بلاد تنيس ودمياط وبحيرتهما يُعرَف بالربر والخبية. واستمر الماء في هذا الخليج من البحر الأبيض المتوسِّط إلى موضع يُعرَف بنعنعان حتى وصل إلى منطقة قريبة

من قرية الهامة. وكانت المراكب، كما يقول المسعودي، تأتي من البحر المتوسِّط إلى مكان قريب من هذه القرية، ومن البحر الأحمر في خليج ذنَب التمساح. ثم يجري نقل الأفراد والبضائع من بحر إلى بحر. ثم رُدِم ذلك مع مرور الدهور، وملأته السواقي من الرمل وغيره.

ويدوِّن الرحالة المسعودي ما شاهده في أيامه، ويشير إلى الفوائد التي كانت تُرتجى من شق قناة بين البحرين المذكورين، إذ يقول:

"وآثار الحفر بين هذين البحرين، فيما ذكرنا من المواضع والخلجان، بيِّنة على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلباً للعمارة، وخصب الأرض، وخصب البلاد، وعيش الناس بالأقوات، وأن يُحمَل إلى كل بلد ما ليس فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المَرافق" (ج٢، ص ٢٦٣).

ملوك اليونان

الإسكندر بن فِليبُس (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م)

يرِد ذكر هذا القائد العسكري العظيم في كتب التراث العربي تحت أسماء كثيرة، منها: الإسكندر ذو القرنين، والإسكندر المقدوني، والإسكندر بن فِليبوس، وكلُّهم واحد. والإسكندر هو

القائد العسكري الأشهر (الأوّل والوحيد حتى الآن) الذي فتح بالحرب وأخضع لسلطانه العالمَ الذي عاصره. وقد حاول بعده السيطرةَ على العالم عن طريق الحرب رجالٌ كثيرون فأخفقوا. وأشهر أولئك الرجال في العصر الحديث نابلون بونابرت (١٧٦٩ -١٨٢١)، وأدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥).

وعن الإسكندر يقول المسعودي:

"وكان أوّل ملوكهم مَن سمّاه بطليموس في كتابه فِلِيبُس.

وقد قيل إن اليونانيين، لمَّا سار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذلَ السيف، كانوا يؤدّون الطاعة ويحملون الجزيَة إلى فارس. وكانت جزيتهم بيضاً من ذهبٍ عدداً معلوماً ووزناً مفهوماً وضريبة محصورة. فلمّا كان من أمر الإسكندر ما كان من ظهوره وهمَّته بعث إليه داريوس ملك فارس، وهو دارا بن دارا، يطالبه بما جرى من الرسم، فبعث إليه الإسكندر:

إنّي قد ذبحتُ الدَّجاجةَ التي كانت تبيض الذهب وأكلتُها.

فكان من حروبهم ما دعا الإسكندر إلى الخروج إلى أرض الشام والعراق، فهزم من كان بها من الملوك، وقتل دارا بن دارا ملك الفرس.

وسار الإسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فسيطر على ملوكها، وتزوّج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله. ثم سار إلى أرض الهند، وهزم ملوكها، وحُمِلت إليه الهدايا والجزية، وحاربه ملكها فور، وكان أعظم ملوك الهند، وكان له معه حروب، وقتله الإسكندر مبارزةً.

ثم سار الإسكندر نحو بلاد الصين والتِّبِت فدانت له الملوك وحَملت إليه الهدايا والضرائب. وسار في مفاوز الترك بريد خُراسان من بعد أن ذلّل ملوكها ورتّب الرجال والقوّاد فيما افتتح من الممالك، ورتّب ببلاد التبت خَلَفاً من رجاله وكذلك ببلاد الصين. ودخل خراسان وبنى مدناً في سائر أسفاره. وكان معلِّمُه أرسطاطاليس حكيمَ اليونانيين، وهو صاحب "كتاب المنطق"، و"ما بعد الطبيعة"، وتلميذ أفلاطون، وأفلاطون تلميذ سقراط. وصرفَ هؤلاء هِمَمَهُم إلى تقييد علوم الأشياء، وأقاموا البراهين على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناوُلُها.

وسار الإسكندر راجعاً من سفره يؤمُّ المغرب. فلمّا صار إلى مدينة شهزور أشتدَّت عليه عِلّتُه (وقيل: ببلاد نصِّيبين من ديار ربيعة، وقيل: بالعراق)، فعهد إلى صاحب جيشه خليفته على عسكره بطليموس.

فلمّا مات الإسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم. وكان يجمعهم، ويستريح إلى كلامهم ولا يُصدِر الأمور إلا عن رأيهم. وجُعِل بعد أن مات في تابوت من الذهب مرصَّعٍ بالجوهر بعد أن طُلِيَ جسمُه بالأطلِيَة الماسكة لأجزائه. فقال عظيمُ الحكماء والمقدَّمُ فيهم: ليتكلَّمْ كلُّ واحد منكم بكلام للخاصّة معزّياً، وللعامة واعظاً.

وقُبِض (مات) الإسكندر وهو ابنُ ستٍّ وثلاثين سنة[1]. وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لـــ دارا بن دارا، وستَّ سنين بعد قتله لـــ دارا بن دارا وتملُّكِه على سائر ملوك الأرض. وملك وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وذلك بمقدونية. وعهد إلى وليِّ عهده بطليموس بن أريت أن يحمل تابوته إلى والدته بالإسكندرية. وأوصاه أن يكتب إليها إذا أتاها نعيُه أن تقيم وليمة وتنادي في مملكتها أن لا يتخلَّف عنها أحد، وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوباً أو مات له خليل، وليكون ذلك مأتم الإسكندر بالسرور، خِلاف مأتم الناس بالحزن.

---

(١) الثابت تاريخياً اليوم أن **الإسكندر** لم يعِشْ ستاً وثلاثين سنة، بل عاش ثلاثاً وثلاثين سنة فقط . ولا بدَّ أن **المسعودي** اعتمد ما كان متداولاً في المصادر التاريخية السائدة في عصره.

فلمّا ورد نعيه إليها ووُضِع التابوت بين يديها، نادت في أهل مملكتها على ما به أمرها، فلم يُلَبِّ أحد دعوتها، ولا بادر إلى ندائها. فقالت لحَشَمِها:

- ما بال الناس لم يجيبوا دعوتي؟

فقالوا لها:

- أنتِ منعتِهم من ذلك.

قالت:

- وكيف؟

قيل لها:

- أمرتِ أن لا يجيبَك مَن فقد محبوباً أو عدم خليلاً أو فارق حبيباً، وليس فيهم أحد إلا وقد أصابه بعض ذلك.

فلمّا سمعتْ ذلك استيقظتْ وعلمت ما به سُئِلَتْ. وقالت: يا إسكندر، ما أشبه أواخرك بأوائلِك!

وأمرت به فجُعِل في تابوت من المرمر، وطُلِيَ بالأطلية الماسكة لأجزائه، وأخرجته من الذهب لعلمها أن مَن يأتي بعدها من الملوك والأمم لا يتركونه في ذلك الذهب. وجُعِل التابوت المرمر على أحجارٍ نُضِّدتْ وصخورٍ نُصِبَتْ، من الرخام والمرمر قد رُصِفَتْ. وهذا الموضع من الرخام والمرمر باقٍ ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يُعرف بقبر الإسكندر إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٢ هــ)" (ج١، ص ٣٠٣ - ٣٠٤).

من ملوك اليمن قبل الإسلام

ويذكر المسعودي أن حُكْمَ اليمن آل في قديم الزمان إلى رجل ليس من أهل بيت الملك، اسمه ذو شَنَاتِر. وكان مغرَماً بالغلمان من أبناء الملوك. وعَدَلَ مع ذلك في الرعيَّة، وأنصف المظلوم، وكان ملكه ثلاثين سنة، وقيل تسعاً وعشرين سنة. "وقتله يوسف ذو نُوَاس، وكان من أبناء الملوك، خوفاً على نفسه، وأنَفَةَ أن يفسق به" (ج٢،ص ٨٥).

كان يوسف ذو نُوَاس على دين اليهودية، وبلغه أن قوماً بنَجران على دين المسيح عليه السلام: "فسار إليهم بنفسه، واحتفر لهم أخاديدَ في الأرض وملأها جمراً، وأضرمها ناراً، ثم عرضهم على اليهودية، فمن تبعه تركه، ومن أبى قذفه في النار" (ج١، ص ٧٧). وقد أدّى به ذلك إلى هلاكه، وهو مذكور في القرآن الكريم: "قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود". وهذا ما جعلَ النجاشي ملكَ الحبشة يرسل جيشاً من النصارى الأحباش يقوده أرياط بن أَصْحَمَة، فعبر البحر الأحمر إلى أرض اليمن. وبعد حروب طويلة غرَّق يوسف نفسَه خوفاً من العار.

وحكم أرياط بن أصحمة أرض اليمن عشرين سنة، إلى أن وثب عليه أبرهةُ الأشرم فقتله وملَكَ اليمن. ولَمّا بلغ النجاشيَّ ذلك غضب على أبرهةُ الأشرم:

"وحلف بالمسيح أن يجزَّ ناصيته، ويُريق دمه، ويطأ تربته، أي أرض اليمن. فبلغ ذلك أبرهةَ فجزَّ ناصيته وجعلها في حِقٍّ من العاج، وجعل من دمه في قارورة فليُهرقْه، وبجراب من تربة بلادي فليطأْه بقدميه، وليُطفئ الملكُ عنِّي غضبَه. فقد أبررتُ يمينه وهو على سرير ملكه.<... >. فلمَّا وصل ذلك إلى النجاشيّ استصوب رأيَه، واستحسن عقله، وصفح عنه. وكان ذلك في عهد ملك قباذ ملك الفرس" (ج٢، ص ٨٦).

وأبرهةُ، كما يقول المسعودي، هو الذي سار بأصحاب الفيل إلى مكة لتخريب الكعبة.

وملك بعد أبرهةُ ابنُه يكسوم فعمَّ أذاه سائر اليمن، وكان ملكه إلى أن هَلَك عشرين سنة. ثم ملَك بعده مسروق بن أبرهة، فاشتدّت وطأتُه على اليمن، وعمَّ أذاه سائر الناس. وزاد على أبيه وأخيه في الأذى، وكانت أمُّه من ذي يزن.

وكان سيف بن ذي يزن قد ركب البحار ومضى إلى قيصر (ملك الروم) يستنجده فأبى أن ينجده. وعند ذلك قصد كسرى أنوشروان (ملك الفرس) فوعده بالنصرة. ولم يستطِع تنفيذ وعده إلا في عهد معد يكْرِب بن سيف، عندما أرسل لنجدته واحداً من قوّاده اسمه وَهْرَز، فقطع "رأس مسروق ورؤوس خواصّ الحبشة ورؤسائهم، وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً" (ج٢، ص ٨٩).

وأقام مَعْد يكرِب بن سيف بن ذي يزَن ملكاً على اليمن فلم يَعتبِر، بل عاد يستعين بالأحباش:

"واتَّخذ عبيداً من الحبشة حَرابَةً يمشون بين يديه بالحِراب. فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بغُمْدان بمدينة صنعاء، فلمَّا صار إلى رحبتها عطفَت عليه الحرابةُ من الحبشة فقتلوه بحرابهم. وكان ملكُه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان" (ج٢، ص ٩٢).

ولمّا قتلت الحبشة مَعْد يكرِب بن سيف بن ذي يزَن: "كان بصنعاء خليفة لــ وَهْرِز على رأس جماعة من العجم، فركب وهزم مَن كان هنالك من الحبشة، وضبط البلد، وكتب بذلك إلى وَهْرِز وهو بباب أنوشروان الملك، وذلك بالمدائن من أرض العراق. فأعلم وَهْرِز بذلك الملك، فسيَّره في البر في أربعة آلاف من الأساورة (الفرسان) وأمَرَه بإصلاح اليمن وأن لا يُبقي على أحد من بقايا الحبشة أو له نسب بالسودان (الزنوج). فأتى وَهْرِز ونزل صنعاء فلم يترك بها أحداً من السودان ولا من أنسابهم" (ج٢، ص ٩٤ - ٩٥) وملَكَ اليمن حتى مات. ثم آلَ حكم اليمن من بعده إلى الفرس زمناً طويلاً.

هارون الرشيد والروم

عن... عن... أخبرني شبل الترجمان، قال:

"كنتُ مع الرشيد حين نزل على هِرَقْلَة وفتحها<...>.

وبابُ هِرَقْلَة مُطِلٌّ على وادٍ خندقٍ يحيط بها. وذكر جماعة من أهل الخبرة من أهل الثغور أن أهل هِرَقْلَة لمَّا اشتدَّ بهم الحصار، وعضَّتهم الحرب بالحجارة والسهام والنار، فتحوا الباب فاستشرف المسلمون لذلك. فإذا رجلٌ من أهلها كأجمل الرجال قد خرج في أكمل السلاح، فنادى:

- يا معشرَ العرب، قد طالت مواقفتُكم[١] إيّانا. فليخرج إليَّ منكم الرجلُ والعشرة إلى العشرين مبارزةً.

فلم يخرج إليه من الناس أحد، ينتظرون إذْنَ الرشيد، وكان الرشيد نائماً. فعاد الروميُّ إلى حصنه. فلمّا استيقظ الرشيد أُخبِر بذلك، فتأسَّف ولام خدمه على تركهم إيقاظَه. فقيل له:

- يا أميرَ المؤمنين، إن امتناع الناس منه اليوم يُطمعُه ويُطغيه ويُجرِّئه أن يخرج في غد فيطلب المبارزة، ويعودَ لمثل قوله.

فطالت على الرشيد ليلتُه، وأصبح كالمنتظِر له إذ فُتِح الباب، فإذا الفارس الروميّ قد خرج وعاد إلى كلامه. فقال الرشيد:

---

(١) مواجهتكم، قتالكم لنا.

- مَن له؟

فابتدره جلّة القُوّاد، فعزم على إخراج بعضهم. فضجَّ أهل الثغور والمتطوِّعة بباب المَضْرِب. فأذِن لبعضهم، وفي مجلسه مخلد بن الحسين وإبراهيم الفزاري. فدخلوا، فقالوا:

- يا أميرَ المؤمنين، قُوّادك مشهورون بالبأس والنجدة، وعلوِّ الصيت ومباشرة الحرب. ومتى خرج واحد منهم وقتل هذا العِلْجَ لم يكبر بذلك. وإن قتله العِلْجُ كانت وصمة على العسكر عظيمة، وثلمة[1] لا تَنْسَدُّ. ونحن عامّة لا يرتفع لأحد منّا صيت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يختار رجلاً منّا يخرج إليه فَعَلَ.

فصوَّب الرشيدُ رأيهم[2]. وقال مخلد وإبراهيم:

- صَدَقوا يا أميرَ المؤمنين.

فأومأ إلى رجل منهم يُعرَف بـــ ابن الجزري، مشهورٍ في الثغور، موصوف بالنجدة. فقال له الرشيدُ:

- أتخرج له؟

قال:

- بلى، وأستعين بالله عليه.

---

(١) ثغرة، نقيصة، عار.

(٢) وجد رأيَهم صواباً.

فقـــال:

- أعطوه فرساً وسيفاً ورمحاً وتِرساً.

فقـــال:

- يا أميرَ المؤمنين، أنا بفرَسي أَوْثَقُ، ورمحي في يدي أشدُّ. ولكنْ قد قَبِلْتُ السيف والترس.

فلبس السلاح. واستدناه[1] الرشيدُ فودَّعه وأتبعه بالدعاء. وخرج ومعه عشرون من المتطوِّعة. فلمّا انقضَّ في الوادي قال لهم العِلْجُ وهو يَعُدُّهم واحداً واحداً:

- إنّما كان الشرط عشرين، وقد ازددتم واحداً، ولكن لا بأس.

فنادوه:

- ليس يخرج لك منّا إلا رجل واحد.

فلمّا خرج منهم ابن الجزري تأمَّلَه العِلْجُ، وقد أشرف أكثر الروم من الحصن يتأمَّلون صاحبهم. فقال له الروميّ:

- أتَصْدُقُني عمّا أسألك عنه؟

قـــال:

- نعم.

قال:

- أنتَ ابن الجزريِّ، بالله؟

---

(١) قرَّبه منه.

قـــال:

- اللّهمّ نعم، فكُفـءٌ لك؟

قـــال:

- بلى، كُفـءٌ.

ثم أخذا في شأنهما، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما، وكاد الفَرَسان أن يقوما تحتهما، وليس واحد منهما خَدَش صاحبَه. ثمَّ رَمَيا برمحَيهما: هذا نحو أصحابه، وهذا نحو حصنه، وانتضَيا سيوفهما وقد اشتدَّ الحَرُّ عليهما، وتبلَّد جواداهما. فجعل ابن الجزريِّ يضرب الروميَّ الضربة التي يظنُّ أنه قد بالغ فيها فيتَّقيها الروميّ، وكانت دَرَقَتُه(١) حديداً، فيُسمَع لها صوتٌ مُنكَر. ويضربه الروميُّ فيتغرَّز سيفُه، لأن تِرس ابن الجزريِّ كان دُرْقَةً تِبْتيَّة(٢). وكان العِلْجُ يخاف أن يعضَّ السيف فيعطَب. فلمّا يئس كل واحد منهما من صاحبه انهزم ابن الجزريِّ. فداخلتِ الرشيدَ

---

(١) الدَّرَقَة: ترس من جلد متين ليس فيه خشب.

(٢) الترس التبتية مغطاة بطبقات من جلد حيوان "الياك"الذي يعيش في التِّبت، وجلده سميك وصوفه غزير، فينغرز السيف في الترس ولا يصل إلى الحديد. فإن انغرز كثيراً عضَّ على الترس فكسر قائمة السيف وطارت شفرته وحدَها.

والمسلمين من ذلك كآبةٌ لم يُصِبْهم مثلُها. وعطعط[1] المشركون من حصنهم. ولكنّها كانت حيلةً من ابن الجزريِّ، فاتبعه العِلْجُ وعلا عليه. فلمّا تمكّن منه ابن الجزريِّ رماه بوَهَقٍ[2] فاختطفه من سرجه ثم عطف عليه، فما وصل إلى الأرض جسدُه حتّى فارقه رأسُه.

وكبَّر المسلمون، وانكسر المشركون، وبادروا الباب ليُغلقوه.

واتَّصل الخبر بـــ الرشيد فصاح بالقُوَّاد أن يجعلوا في حجارة المجانيق[3] النارَ، فليس عند القوم دفعٌ بعدها. وعاجلهم المسلمون إلى الباب فدخلوها بالسيف. وقيل إنهم (الروم) نادوا بالأمان فأمِنـــوا.

وصُبَّتِ الأموال على ابن الجزريِّ، وقُوِّدَ[4]، وخُلِعَ عليه، فلم يقبَل شيئاً من ذلك، وسأل أن يُعفى ويُترَك على ما هو عليه" (ج١، ص ٣٤٨ - ٣٥٠).

---

(١) ضحكوا ساخرين فرحين.

(٢) الوَهَق حبل ينتهي بأنشوطة.

(٣) مفردُها منجنيق، وهو آلة قديمة لرمي الحصون بالحجارة الكبيرة والنـــار.

(٤) أرادوا أن يجعلوه قائداً.

النَّرْد[1] والشطرنج

ولا يفوت المسعودي أن يأتيَ على ذكر لُعبتَي النرد والشطرنج والأساسِ الفلسفي لظهورهما عند الملوك أوّل الأمر.

إذ يورد المسعودي ما كان شائعاً عن أن أول من صنع لعبة النَّرْد واللعب بها هو واحد من ملوك الهند البراهمة كان يؤمن بأن المرء لا ينال المكاسب والأرزاق بالعمل ولا بالحيَل في هذه الدنيا. فأراد ذلك الملك أن يبيّن للناس أن الرزق لا يأتي عن طريق المهارة والمعرفة، وإنما كلُّ شيء قسمة ونصيب، كما يقال.

ويضيف المسعودي:

"وقد ذُكر أن أردشير بن بابك أوّل من صنع النرد ولعب بها، وأرى (أي بيَّن وأظهرللناس) تقلُّب الدنيا بأهلها، واختلاف أمورها. وجعل بيوتها (خانات لعبة النرد) اثني عشر بيتاً بعدد الشهور. وجعل كلابها (أحجارها) ثلاثين كلباً بعدد أيام الشهر. وجعل الفصَّين (المكعّبَين، أو حَبَّتَي الزهر) مَثَلاً للقدَر وتقلُّبه بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القدَر إيّاه في مراده باللعب بها ما يريد. وأن الحازم الفطن لا يتأتّى له ما تأتّى لغيره إلا إذا أسعده القدَر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تُنال إلا بالجدود" (أي بالحظوظ).

---

(١) ما نسميه اليوم (طاولة الزهر).

إلا أن ملكاً آخر من ملوك الهند كان له رأي مختلف بهذه المسألة، فرفض التسليمَ بالاعتماد على الحظ، والتقليلَ من شأن العقل والعمل. واسم هذا الملك هو الذي آمن بأن الحياة أكثر صعوبة وتعقيداً، فلا يكون النصر والنجاح فيها للجاهل وإنما للعاقل الحازم صاحب الإرادة. وبلهيت هو مَن:

"صُنِعت في أيامه الشطرنج، فقضى بلعبها على النرد، وبيَّن الظفر الذي يناله الحازم، والبلية التي تلحق بالجاهل. وحسب حسابها (لعبة الشطرنج)، ورتَّب لذلك كتاباً للهند يُعرَف بـــ "طرق جنكا" يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه. وجعلها مصوَّرة تماثيل مشكَّلة على صوَر الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب، ومثَّل الشاه بالمدبِّر الرئيس، وكذلك ما يليه من القِطع. وأقام ذلك مثالاً للأجساد العلْوية التي هي الأجساد السماوية من السبعة والاثني عشر، وأفرد كل قطعة منها بكوكب، وجعلها ضابطة للمملكة. وإذا كان عدوٌّ من أعدائه فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتَون في عاجل أو آجل. وللهند في لعب الشطرنج سرٌّ يسرّونه في تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، وما إليه منتهى العلة الأولى" (ج١، ص ٩٢).

كما يبدي هذا الرحالة إعجابه القوي بطبيعة الهند الجميلة، ويصف الفِيَلَة، والتماسيح، والببغاوات، ووحيداتِ القرن، وظباءَ المسك...إلخ.

بيوت النار المجوسية

وعدد هذه البيوت عشرة:

"وكانت قبل ظهور زرادشت بن أسبيمان نبيِّ المجوس، ثم اتَّخذها زرادشت بن أسبيمان بعد ذلك بيوتَ النيران".

ومن تلك البيوت بيت سابور، وبيت بارنوا، وبيت جور الذي زاره المسعودي وقال عنه:

"وفي مدينة جور من أرض فارس، وهو البلد الذي يُحمَل منه ماء الورد الجوري وإليه يُنسَب، بيتٌ للنار بناه أردِشير بن بابِك، وقد رأيتُه. وهو على ساعة منها، على عينٍ هناك عجيبةٍ، وله عيد. وهو أحد منتزهات فارس. وفي وسط مدينة جور بنيان كان تعظِّمه الفرس يقال له الطربال أخربَه المسلمون. وبين جور ومدينة كوار عشرة فراسخ، وبها يُعمَل ماء الورد الكواري وإليها يُنسَب. وهذا الماء الوردالمعمول بجور وكوار أطيَبُ ماء ورد يُعمَل في العالم، لصحّة التربة وصفاء الهواء. وفي ألوان سكّان هذه البلاد حُمْرَةٌ في بياض ليست لغيرهم من أهل الأمصار" (ج٢، ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

الضَّيْزَن وسابور

بعد ملوك السريان والنعمان بن المنذر: "تملَّك الديارَ الضيزنُ بنُ جبهلة، وكان كثير الجنود، مهادناً للروم، متحيِّزاً إليهم، يُغير رجالُه على العراق والسواد. وكان في نفس سابور عليهم ذلك. فلمّا نزل على حصنه تحصَّن الضيزنُ في الحصن. فأقام سابور عليه شهراً لا يجد سبيلاً إلى فتحه، ولا يتأتّى له حيلة في دخوله. فنظرتِ النضيرة بنتُ الضيزن يوماً وقد أشرفتْ من الحصن إلى سابور فهَوِيَتْهُ وأعجبها جماله، وكان من أجمل الناس وأمدَّهم قامة. فأرسلت إليه:

إنْ أنتَ ضمنتَ لي أنْ تتزوّجني وتُفضِّلني على نسائك دللتُك على فتح هذا الحصن.

فضمن لها ذلك. فأرسلت إليه:

ائتِ الثرثار – وهو نهرٌ في أعلاه – فانثرْ فيه تبناً ثمّ اتبعْه فانظرْ أين يدخلُ فأدخِلِ الرجال منه. فإن ذلك المكان يُفضي إلى الحصن.

ففعل ذلك سابور، فلم يشعر أهل الحصن إلا وأصحاب سابور معهم في الحصن.

وقد عمدت النضيرة فسقت أباها حتّى أسكرتْه طمعاً في أن يتزوَّجها سابور.

وأمرَ سابور بهدم الحصن بعد أن قتل الضيزن ومَن معه، ثمَّ وفى بوعده وعَرَّسَ بـــ النضيرة بنت الضيزن، فباتت مسهَّدة.

فقال لها سابور:

- ما لكِ لا تنامين؟

قالت:

- إن جَنْبي يتجافى عن فراشك.

قال:

- ولِمَ؟ فوالله ما نامت الملوك على ألْيَنَ منه وأوطأ، وإنّ حَشْوَه لَزغبُ النعام!

فلمّا أصبح سابور نظر فإذا بورقة آسٍ بين عُكَنِها[1]. فتناولها، فكاد بطنها أنْ يَدْمى. فقال لها:

- وَيْحَك! بمَ كان أبواكِ يغذّيانك؟

فقالت:

- بالزبد والمخّ والثلج والشهد وصفْوِ الخمر.

فقال لها سابور:

- إنّي جدير بألا أُبقيَكِ بعد إهلاك أبويكِ وقومِك، مادامت حالتُك كانت عندهم الحالةَ التي تَصِفين.

فأمرَ بها، فربُطت بغدائرها إلى فرسَين جَموحَين، ثمّ خَلّى سبيلَهما فقطَّعاها" (ج٢، ص ٢٥٦ - ٢٥٧).

---

(١) طيّات اللحم، وخصوصاً عند البطن.

الفيـــل

ليس الاهتمام بعالَم الحيوان، طباعاً وصِفات وعادات وحياةً... بجديد في التراث العربي. يظهر ذلك الاهتمام جليّاً في القرآن الكريم، و"نهج البلاغة"، وكتاب الجاحظ "الحيوان" (ثمانية أجزاء)، و"كتاب الإبل" للأصمعي... إلخ. وبهذا المعنى ليس المسعودي فاتحاً، بل هو يسجّل مشاهداته، فيضيف ما يراه جديداً، ويدقّق في صحّة ما هو شائع فيصحّح بعض المعلومات الغلط عن حيوانات معيّنة.

وعلى هذا الأساس يعود المسعودي إلى وصف الفيل والحديث عنه في مواضع متفرقة كثيرة من كتابه "مروج الذهب" (في الجزأين الأول والثاني). وقد جمعنا هنا من ذلك ما رأيناه مفيداً وطريفاً، فجعلناه نصاً واحداً، وذلك تيسيراً لتحصيله والاطلاع عليه في هذه الصورة.

يقول المسعودي إن الفِيَلَة في بلاد الزنج كثيرة جداً، وهي وحشيَّة كلُّها غيرُ مستأنسة. والزنج لا يستعملونها في الحروب ولا غيرِها، بل يقتلونها. فهم يطرحون لها في الماء نوعاً من ورق الشجر ولِحائه وأغصانه، ثم يختبئون في مكان قريب. وعندما تشرب الفِيَلَة من ذلك الماء يحرقها ويُسكِرها فتقع. وهي لا تستطيع النهوض لأن قوائمها ليس فيها مفاصل ولا رُكَب.

وعندئذ يخرج إليها الزنج بأعظم ما لديهم من حِراب ويقتلونها لأخذ أنيابها العاجيّة. وكل ناب يزِن سبعين كيلو غراماً وأكثر. وينقل هذا العاج إلى عُمان، ومنها إلى الصين والهند. فملوك الصين وقادتها يتَّخذون قوائم رماحهم من العاج، ولا يدخل قوّادها أو أحدٌ من خواصِّها على ملوكها بشيء من الحديد، بل بتلك الرماح المصنوعة من العاج. كما يستعملون العاج لتبخير بيوت الأصنام والمعابد. ولا يربّي أهل الصين الفيلة في أرضهم، فهم يتشاءمون من اقتنائها ومن استخدامها في الحروب.

وفي الهند تعيش الفيلة وتتكاثر. وهي ليست وحشية هناك، وإنما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر والإبل. وأكثرها يأوي إلى المروج والضياع والغياض كالجواميس في أرض الإسلام. والفيلة تهرب من المكان الذي يكون فيه الكَرْكَدَنّ (وحيد القرن). فلا ترعى في موضع تشمُّ فيه رائحة هذا الحيوان.

ولكنّ المسعودي يحدِّثنا عن نوع من الطِّيب (أي العِطر) عجيبٍ يظهر في وقت من السنة من جِباه الفيلَة بأرض الهند ورؤوسها من العَرَق الذي هو كالمِسْك. والهند تراعي وقت ظهور هذا الطيب، فتأخذه وتضعه على بعض أدهانها الطيِّبة لتصبح أغلى وأفخر ما يستعمله الملوك وأصحاب الشأن في تلك البلاد. لأن له منافعَ كثيرة، ومنها طِيبُ عطره والتبخُّر برائحته عندما يُحرَق فوق الجمر

كالبُخُور. فهو يؤثر في الإنسان عند شمّه واستعماله، فيلتهب في الرجال والنساء الحبُّ والطرب والنشاط والأريحية. وكثير من رجال الهند الشجعان يستعمل هذا الدّهن وقت المعارك والحروب، لأنه "يشجِّع القلب، ويقوِّي النفس، ويبعثها على الإقدام". وأكثر ما يظهر هذا النوع من العَرَق من جِباه الفيَلَة في ذلك الفصل من السنة الذي يكون فيه هَيَجانُها من أجل التكاثر. فإذا جاء ذلك الوقت هرب عنها سوّاسُها ورعاتُها، لأنها لا تعود تفرِّق بين مَن تعرف وغيره من الناس. وعند ذلك تسلك الفيَلَة الأودية والجبال، ويهرب منها الكَرْكَدَنّ نفسُه (واسمه أيضاً النوشان، ووحيد القرن)، ولا يبقى في المكان الذي هي فيه. لأن الفيل يكون بحال السكران، لا يعقِل ولا يميِّز بين الكركدن وغيره. ولمّا يذهب الهَيَجان عن الفيل ويُسترجَع إلى بلاده عن مسافة شهر وأكثر وهو في بقية من سُكْره، يبقى عليلاً حوالي شهر أيضاً حتى يعود طبيعياً كما كان. ولا يُصاب بذلك إلا الفحول من الفيَلَة وذوو الجراءة منها والإقدام. ومن الفيَلَة في أرض الهند ما يُعمِّر مائة سنة ومائتين، ويضع حمله (يتكاثر) في كل سبع سنين. والفيَلَة لا تتكاثر وتتوالد إلا بأرض الزنج والهند، ولا تعظم أنيابُها بأرض السند والهند كما تعظم بأرض الزنج. ويصنع الزنج من جلودها دروعاً لا تضاهيها في المتانة والمنِعة دروع أخرى.

والفيل يهرب أيضاً من السنانير (جمع سِنّور)، وهي القِطاط، ولا يقف أمامها البتّة إذا أبصرها. وملوك الفُرْس في وقت الحرب يواجهون الفيَلة المقاتلة بالحيلة فيطلقون السنانير عليها. وكذلك كان يفعل ملوك السند والهند.

وكان رجل من أرض السند يدعى هارون بن موسى، وكان شاعراً شجاعاً ورئيساً في قومه. وكان في حصن له، فالتقى في حرب مع بعض ملوك الهند تتقدّمهم الفيَلة. فلمّا دنا في حملته من الفيل خلّى القطَّ عليه، فولّى الفيل منهزماً لمّا أبصر الهر. وبذلك وقعت الهزيمة بجيش الهنود، وقُتل الملك، وكتب النصر للمسلمين على يد هارون بن موسى.

ويمضي المسعودي فيصف الفيل لأبناء عصره قائلاً:

"وخرطومه أنفه، وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شيء بين الغضروف واللحم والعصب، وبه يقاتل ويضرب، ومنه يصيح، وليس صوت الفيل على مقدار عِظَم جسمه وكبر خَلْقه.... وكلُّ حيوان ذي لسان يكون أصل لسانه إلى داخل، وطرفه إلى خارج، إلا الفيل. فإن طرف لسانه إلى داخل، وأصله إلى خارج" (ج٢، ص ١٢).

وعندما يرِد الفيلُ مياهَ الغدران والأنهار للشرب يخاف إذا كان الماء صافياً. ولذلك تراه يثير الماء ويعكّره، ويمتنع من شربه

عند صفائه. كذلك أكثر الخيل إذا وردت الماء وكان صافياً ضربته بأيديها فكدَّرته قبل أن تشرب منه. وتشترك في هذه الصفة الخيل والفيَلة وبعض الإبِل دون سائر الحيوان. والسبب هو أنها تشاهد صورها في الماء الصافي فتعكِّره بأيديها كي تزيل الصورة. غير أن باقي الحيوانات الكبيرة الجسم إذا رأت صورتها منعكسة على صفاء الماء أعجبتها لعِظمِها وحسنها وما فاق به من حسن الهيئة غيره من أنواع الحيوان.

أمّا عن العاج فيقول المسعودي إنه يستعمل في الهند لصنع الشطرنج والنرد. وإن أهل الهند يغلب عليهم القِمار في لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر. وربما خسر الواحد منهم ما معه فيلعب على قطع عضو من أعضاء جسمه. ولذلك يضعون بحضرتهم قِدْراً من النحاس صغيرة على نار فحم، وفي القِدْر دهنُ لحمٍ أحمر. فيغلي ذلك الدهن الذي يُدمل الجرح ويقطع سيلان الدم. فإذا خسر اللاعب إصبعاً من أصابعه يقطعها بخنجر ساخن مثل النار، ثم يغمس يده في ذلك الدهن فيكويها ويتوقف نزيف الدم. ثم يعود إلى اللعب على إصبع ثانية، وقد يستمر في الخسارة فيقطع أصابعه والكف، ثم الذراع والزند وسائر الأطراف. وكل ذلك يستعمل فيه الكي بذلك الدهن العجيب الذي يُعمَل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند عجيبِ المعنى.

ويروي المسعودي في (ج١، ص ١٨٠) قصة كان شاهداً عليها، فيقول إن لملك المنصورة (في بلاد السنْد) فيَلة حربية، وعددها ثمانون. ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفَين عند ملوك السند والهند لِما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على مقاتلة الجيوش. وكان اسم أحدهما "منفرقلس" والآخر "حيدرة". ولمنفرقلس هذا أخبار عجيبة، وأفعال حسنة، وهي مشهورة في تلك البلاد وغيرها. ومنها أنــه مات بعضُ ســوَّاسه، فبقيَ أياماً لا يأكل ولا يشرب، يُبدي الحنين، ويُظهِر الأنين، كالرجل الحزين، ودموعه تجري من عينيه لا تنقطع. ومنها أنه خرج ذات يوم من دار الفيَلة وحيدرةُ وراءه، وباقي الثمانين يتبعونهما. ولَمّا وصل منفرقلس في سيره إلى شارعٍ ضيِّق قليلِ العرض من شوارع المنصورة فاجأ في مسيره امرأة على حين غفلة منها. وحين رأته دهشت واستلقت على قفاها من الجزَع، وانكشفت عنها ثيابها في وسط الطريق. فلمّا رأى ذلك منفرقلس وقف بعرض الشارع مستقبلاً بجنبه الأيمن ما وراءه من الفيَلة، مانعاً لهم من الوصول إلى المرأة. وأقبل يشير بخرطومه بالقيام، ويجمع عليها أثوابها، ويستر منها ما بدا، إلى أن انتقلت المرأة وتزحزحت عن الطريق بعد أن عاد إليها روحها، فمضى الفيل في طريقه وتبعته الفيَلة.

ويذكر المسعودي في مكان آخر أنه: "كان أبرويز (ملك الفرس) خرج في بعض الأعياد وقد صُفَّت له الجيوش والعُدد والسلاح. وفيما صُفَّ له ألف فيل، وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجّالة. فلمّا نظر الفيَلة سجدت له، فما رفعت رؤوسها وبسَطت خراطيمها حتّى جُذِبَت بالمحاجن[1]، وكلّمها الفيّالون بالهندية. فلمّا بصر بذلك أبرويز تأسَّف على ما خُصَّ به أهل الهند من فصيلة الفيَلة، وقال:

- ليت أن الفيل لم يكن هندياً وكان فارسياً. انظروا إليها وإلى سائر الدوابّ وفصّلوها بقدْر ما ترون من معرفتها وأدبها.

وقد افتخرت الهند بالفيَلة وعِظَم أجسامها، ومعرفتها، وحُسْن طاعتها، وقبولها الرياضيات، وفهمها المرادات، وتمييزها بين الملك وغيره، وأن غيرها من الدواب لا يفهم شيئاً من ذلك ولا يفصل بين شيئين" (ج١، ص ٢٩٠ - ٢٩١).

الحــوت

ومن الحيوانات الأخرى التي يصفها المسعودي في "مروج الذهب" نوعٌ من السمك شاهده في بحر الزنج هو:

"السمك المعروف بأفال[2]، طول السمكة نحوٌ من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع (بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك

---

(١) العصا المعقوفة الطرف التي تُدفَع بها الفيَلة.

(٢) نوع من الحيتان يعيش في أعالي البحار معروف باسم حوت الأوال.

البحر). والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع. وربّما يَهزُّ البحرُ فيُظهِر شيئاً من جناحه فيكون كالقلع العظيم، وهو الشِّراع. وربما يظهر رأسه، وينفخ الصُّعَداء بالماء فيذهب الماء في الجوّ أكثر من ممرِّ السهم. والمراكِب تفزع منه في الليل والنهار، وتضرِب له بالدبادب[1] والخشب لينفر من ذلك. (وهو) يحشر بأجنحته وذنبه السمَكَ إلى فمه، وقد فغر فاه، وذلك السمك يهوي إلى جوفه جَرْياً. فإذا بَغَتْ هذه السمكة (أي حوت الأوال) بعث الله عليها سمكة (طولُها) نحو الذراع تُدْعى اللَّشك، فتلصق بأصل ذنَبِ الحوت فلا يكون له منها خلاص، فيطلب قعر البحر ويضرب بنفسه حتى يموت، فيطفو فوق الماء فيكون كالجبل العظيم. وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا يدنو الأفال رغم عظمته من المركب، ويهرب إذا رأى هذه السمكة الصغيرة، إذ إنها آفة له وقاتلتُه" (ج١، ص ١١٨).

التمساح

"وكذلك التمساح يموت من دُوَيْبة تكون في سواحل النيل وجزائره. ذلك أن التمساح لا دبْرَ له، وما يأكله يتكوّن في بطنه دوداً. وإذا آذاه ذلك الدود خرج (التمساح) إلى البر فاستلقى على

(١) انظر الهامش ٥١.

قفاه فاغراً فاه، فيُقَيِّض الله إليه طيراً كالطيطوي والحصافي وغير ذلك من أنواع الطيور، وقد اعتادوا ذلك منه، فيأكل الطير ما ظهر في جوفه من ذلك الدود. وتكون تلك الدُوَيْبة قد كمنت في الرمل تراقبه، فتدبُّ إلى حلْقه، وتصير في جوفه. فيخبط بنفسه في الأرض ويطلب قعر النيل حتى تأتي الدُوَيْبة على حُشْوَة جوفه. ثم تتخرق جوفه وتخرج. وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته. وهذه الدُوَيْبة تكون نحواً من ذراع على صورة ابن عرس، ولها قوائم شتّى ومَخالب.

وفي بحر الزنج أنواع من السمك بصوَرٍ شتّى. ولولا أن النفوس تُنكِر ما لم تعرفْه وتدفع ما لم تألفْه، لأخبرْنا عن عجائب هذه البحار وما فيها من الحيتان والدواب وغيرِ ذلك من عجائب المياه والجماد" (ج١، ص ١١٩).

ظِباء المِسك

وقد أُعجِب المسعودي أيَّما إعجاب ببلاد التِّبت، وهي مملكة مجاورة للصين، وما فيها من طبيعة وناس، فقال في ذلك:

"ولبلاد التبت خواصّ عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبلها. ولا يزال الإنسان أبداً ضاحكاً بها فرِحاً مسروراً، لا تعرِض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار. ولا تُحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها".

ويحدِّثنا عمّا في تلك البلاد من ظباء المِسك التبتي، فيقول إنه أفضل من المِسك الصيني من ناحيتين:

١) أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب والنباتات الزكية الرائحة. أما الظباء الصينية فترعى الحشيش وليس النبات الطيِّب الرائحة.

٢) أن أهل التبت لا يقومون بإخراج المسك من نوافجه بل يتركونه فيها. أما أهل الصين فيُخرِجونه من نوافجه ويغشّونه بالدم وغيره.

كما أن أهل الصين ينقلون مِسكهم عبر البحار فيتعرض للرطوبة واختلاف الهواء. وإذا ما كفّوا عن غشِّ مسكهم ووضعوه في أوانٍ زجاجية محكمة الإغلاق ثم جاؤوا به إلى بلاد الإسلام (عُمان وفارس والعراق...) فإنه سيكون كالمسك التبتي.

وأجوَد المِسك وأطيبه، كما يقول المسعودي، هو ما خرج من الظباء بعد أن ينضج تماماً. ولا فرق بين غزلاننا وغزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن إلا بأن لغزلان المسك أنياباً كأنياب الفيَلة. لكل ظبيٍ نابان خارجان من الفكَّين قائمان منتصبان أبيضان، نحو الشبر وأقلّ وأكثر.

وتُنصَب لغزلان المسك في بلاد التبت والصين الحبائل والأشراك والشِّباك فيصطادونها. وربما رَمَوْها بالسهام فيصرعونها. ثم

يقطعون عنها نوافجها والدم حارٌّ في جوفها (في السرّة) لم ينضج بعد، فتكون رائحته كريهة، وتبقى زماناً حتى تزول. ويتحوّل بفضل موادّ من الهواء فيصير مِسكاً...

وخير المسك ما نضج في سُرّة الغزال. فإذا نضج هناك تألّم الغزال فحكّه مستلذّاً بأحد الصخور والأحجار الساخنة من حر الشمس، فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الخُرّاج أو الدّمَّل، فيجد لخروجه لذّة. وبعد إفراغ المسك تندمل السرة، ويعود المسك يتكوّن فيها من جديد. ويخرج رجال التبت يقصدون مراعي الغزلان بين تلك الأحجار والجبال، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار بعد أن أنضجته الطبيعة في حيوانه، وجفَّته الشمس، وأثَّر فيه الهواء، فيأخذونه ويضعونه في نوافج معهم أخذوها من غزلان اصطادوها، فذلك أفضل المسك (ج١، ص ١٦٩ - ١٧٠).

القـــرود

ويتحدث المسعودي في "مروج الذهب" (ج١، ص ٢٠٨ - ٢١٠) باستفاضة عن القِرَدَة وأنواعها وطباعها، فيقول إنها تعيش في بقاع الأرض الحارّة. فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الأحابيش مما يلي أعالي مصب النيل، وهي القرود المعروفة

بالنوبية[١]. وهي صغيرة القدّ، صغيرة الوجوه، ذات سواد غير حالك، وهو الذي يكون مع القرّادين[٢]، ويصعد على رمح فيصير في أعلاه. ومنها ما يكون في ناحية الشمال في آجام وغياض نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هناك من الأمم.

وهناك نوع من القرود منتصبة القامات، مستديرة الوجوه، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر. ونادراً ما يُصطاد منها قردٌ بالحيلة، فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا أنه لا لسان له ليعبِّر بالنطق. وهو يفهم كل شيء بالإشارة، فيعلِّمونه الوقوف حاملاً مذبَّة[٣] عند رؤوس الملوك على موائدهم، وذلك لما في القرد من مقدرة على معرفة السموم في المأكل والمشرب. إذ يلقي له الملك من طعامه، فإن أكله أكل الملك، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه. وهذا ما يفعله أكثر ملوك السند والهند.

وحين جاء وفد الصين إلى المهدي ذكروا له ما في القرد من منافع لملوكهم عند الطعام. ومنها بخلجان بلاد الزابج في الصين.

---

(١) ما نسمّيه السعادين، وجمعُها سعدان.

(٢) القرّادون: مَن يدرِّبون القرود على ألعاب مختلفة، ويرتزقون بذلك.

(٣) جمعُها مذابّ أو مذبّات، وهي لتحريك الهـواء، كمروحة يدوية، و(لكشِّ الذباب).

وهذه القرود مشهورة في هذا الصقع، معروفة بالكثرة في هذه الخلجان، وهي ذات صور تامّة. وكان أحمد بن هلال، أمير عُمان يومئذ، قد جاء إلى الخليفة المقتدر بعدد منها في سلاسل عظام. وكان بين تلك القرود ذوو لِحى وسِبال كبار وشيوخ وشبّان مع أنواع من الهدايا من عجائب البحر. وهذه القرود أمرها مشهور عند البحريين من أهل سيراف وعُمان ممن يسافرون إلى الهند والصين، يعرفون كيف تأتي بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء.

أمّا اليمن فلا خلاف بين من دخله في أن القرود منه في مواضع كثيرة وأعدادها لا تُحصى. فمنها في وادي نخلة، وهو كثير العمائر، ومصابٌّ المياه إليه كثيرة، وشجر الموز فيه كثير، والقرود فيه كثيرة. فهي قطعان، وكل قطيع منها يسوقه هرز. والهرز هو الذكر العظيم الذي يقودها، كالفحل. وقد تلد القِرْدة في بطنٍ واحدة نحو عشرة قرود أو اثني عشر. وتحمل القِرْدة البعض من أولادها كحَمْل المرأة ولدها، ويحمل الذكر باقيهن. وللقرود أندية ومجالس تجتمع فيها، فيُسمَع حديث ومخاطبات وهمهمة. والإناث كالنساء منفصلات عن الذكور. وإذا سمع السامع حديث القرود في الليل وهو لا يراها بين تلك الجبال وأشجار الموز، لم يشكّ أنهم أناس لكثرتهم بالليل والنهار. وليس

في جميع البقاع أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولاً للتعليم من قرود اليمن. وأهل اليمن يسمون القرد الرباح. وللقرود الذكور والإناث جُمَمٌ (شَعرٌ كثيف) قد سُرِّحت، ومنها سود كأسود ما يكون من الشعر. وإذا جلسوا يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس، ويتشبّهون في سائر أعمالهم بالناس. ومن القرَدة باليمن، ببلاد مأرب بين صنعاء وقلعة كهلان، ما يكون في برارٍ وجبال هنالك كأنها السحب في تلك البراري والجبال لكثرتها.

العَرْبَد والعَرانِس والنَّسناس

ينقل المسعودي أخباراً عن نوع من الحيوان هو العَرْبَد (جمعُها عرابيد). وهو يشكك بصحة هذه الأخبار، كما أسلفنا. ويقول إنه نوع كالحيّات، تعيش ببلاد حجر اليمامة، فيما زعموا. وكان الخليفة المتوكّل في بدء خلافته سأل حُنَين بن إسحاق أن يأتيَ له بحمل من النسناس والعربد، فلم يسلم منهم إلى سُرَّ مَن رأى (مدينة سامرّاء اليوم) إلا اثنان من النسناس، ولم تتأتَ له الحيلة في حمل العربد من اليمامة، وذلك أن العربد إذا خرج عن اليمامة وصار إلى موضع منها معروف المسافة اختفى من الوعاء الذي حُمِل فيه.

وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيّات والعقارب وسائر الهوام، كمنفعة أهل سجستان بالقنافذ. ولذلك كان في قانون أهل

سجستان القديم ألا يُقتَل قنفذ ببلدهم، لأنه بلد كثير الرمال بناه الإسكندر ذو القرنين، والبلد كثير الأفاعي والحيّات جدّاً، فلولا كثرة القنافذ لتلف مَن هنالك مِنَ الناس.

وكذلك أهل مصر في صعيدها وغيره، لهم دويبة يقال لها العرانس، أكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس، حمراء بيضاء البطن. لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين، وهي نوع من الحيّات العظيمة. إذ ينطوي الثعبان على هذه الدويبة ويلتفُّ بها فتُرخي عليه الريح، أي تطلق رائحة تقتله[1] (ج١، ص ٢١١).

العنبر واللؤلؤ

ويروي المسعودي قصة نوع من العنبر الذي يقذفه البحر على الشواطئ:

"وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشِّحر من أرض العرب. وأهل الشِّحر أُناسٌ من قُضاعة وغيرِهم من العرب، وهم مَهْرة[(٢)]. ولغتهم بخلاف لغة العرب، وذلك أنهم

---

(١) يسمّى هذا الحيوان في أمريكا الشمالية (سكونْس). وهو يطلق رائحة كريهة قوية، كما يطلق من دبْره سائلاً إذا أصاب شيئاً كان من المستحيل تقريباً التخلص من آثاره أو رائحته.

(٢) الأرجح أنهم الناطقون باللغة الأمهرية في بعض مناطق القرن الأفريقي.

يجعلون الشين بدلاً من الكاف (مثلاً: لَك = لَش، معك = معش) وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم.

وهم ذوو فقر وفاقة، ولهم خيل يركبونها بالليل تُعرَف بالنُّجُب المَهْريّة تُشبَّه في السرعة بالنُّجُب البجاوية، بل عند جماعة أنها أسرع منها. يسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحسَّت هذه النُّجُب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه، قد ريضت لذلك واعتادته، فيتناوله الراكب. وأجوَد العنبر ما وقع في هذه الناحية وإلى جزائر الزنج وساحله. وهو المدوَّر الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك. ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأوال... وذلك أن البحر إذا اشتدَّ قَذَفَ من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر... فإذا ابتلع هذا الحوتُ العنبرَ قتله فيطفو فوق الماء. ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، فيشقّون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه. فما يخرج من بطنه يكون سَهِكاً (لزجاً، رائحته كريهة تذهب إذا جفّ) ويعرفه العطّارون بالعراق وفارس والهند. وما بقيَ على ظهر الحوت منه كان نقيّاً جيّداً، على حسب بقائه في بطن الحوت".

والعنبر موجود أيضاً بين جُزُرٍ في هذا البحر عددها حوالي ألفين، وكلّها عامر بالناس ويحكمها امرأة: "وبذلك جرت عادتهم منذ قديم الزمان لا يملكهم رجل".

وهذا العنبر الذي يقذفه البحر: "كأكبر ما يكون من قِطع الصخر. وأخبرني غير واحد من نوَاخذة السيرافيين والعُمانيين بعُمان وسيراف وغيرها من التجار ممن كان يختلف (يسافر) إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر، ويتكوَّن كتكوُّن أنواع الفطر: من الأبيض، والأسوَد، والكمأة والمغاريد، وبنات أَوبَر ونحوِها. فإذا هاج البحر واشتدَّ قذف من قعره الصخور والأحجار وقِطع العنبر".

ويأتي على ذكرجزيرة خاركي في بحر فارس (الخليج العربي)، وفيها مَغاص اللؤلؤ المعروف بالخاركي. وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، وفيه العقيق، وأنواع الياقوت والماس...

والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول. وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غَوْصً فيه. واللؤلؤ خاص ببلاد خارك وقطر وعُمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر. وهناك صدَفُ اللؤلؤ العتيق، واللؤلؤ الحديث الذي يسمّى بالمَحار، والمعروف بالبلبل. وفي الصدف لحم وشحم.

والمحار الذي في الصدف حيوان كان يُظَن في أيام المسعودي أنه "يفزع على ما فيه من اللؤلؤ والدر خوفاً من الغاصة (الغوّاصين) كخوف المرأة على ولدها" (ج١، ص ١٦١ - ١٦٢).

المَراجع

أدهم، علي. بعض مؤرخي الإسلام. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤.

الخربوطلي، د. علي حسني. المسعودي. (نوابغ الفكر العربي - ٣٨)، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨.

سِزكين، فؤاد. مختارات من الجغرافيا الرياضية والكرتوغرافيا عند العرب والمسلمين واستمرارها في الغرب. نقلها عن الألمانية مازن عمّاري. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا، ٢٠٠٠.

فهيم، د.حسين محمد. أدب الرحلات. الكويت، عالم المعرفة، رقم ١٣٨، ١٩٨٩.

كراتشكوفسكي، إغناطيوس. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢ مصححة ومنقّحة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٧٨.

المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام. بيروت، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠

المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. عُنيَ به د.محمد هشام النعسان، عبد المجيد طعمة الحلبي. دار المعرفة، بيروت، ج١ -٢، ط١، ٢٠٠٥.

المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم، بيروت، المجلّد الأوّل.

المسعودي. أخبار الزمان ومن أباده الحِدثان. المُراجِع والمصحّحِ عبد الله الصاوي. القاهرة، ط ١، ١٩٣٨.

المسعودي. التنبيه والإشراف. ليدن، مطبعة بريل ١٨٩٣، دار صادر، بيروت.

ميكولسكي، دميتري. المسعودي هيرودوت العرب. تر: د.عادل اسماعيل، مراجعة د. نوفل نيّوف. دمشق، دار المدى، ٢٠٠٥.

الموسوعة العربية. المجلّد ١٨، دمشق، ط١، ٢٠٠٧.

الموسوعة العربية العالمية. المملكة العربية السعودية، ج ٢٣، ١٩٩٦.

* * *

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

الفصل الثاني

رحلاتـــه

الفصل الثالث

مختارات من "مروج الذهب ومعادن الجوهر"

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

نتوجه بهذا الكتاب إلى الناشئة، متوخين قبل كل شيء، الأخذ بأيديهم وتشجيعهم على قراءة كتب التراث، واستقاء ما فيها من متعة وفائدة.

وانصبَّ اهتمامنا في ما اخترناه من مشاهدات الرحّالة المسعودي وأخباره، على ماتراه مفيداً، طريفاً، مشوقاً، نابضاً بالمعلومة والعبرة في أهم ماوصل إلينا من كتبه (مروج الذهب) أساساً.

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م